الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي لميلة

معهد الآداب واللغات

ميدان اللغة و الأدب العربي

170/٤٩
850/4/1/01/01

عنوان المذكرة:

الشعوبية في الشعر العباسي
بشار بن برد و أبو نواس
"نموذجا"

مذكرة تخرج لنيل شهادة ليسانس نظام جديد
تخصص الأدب العربي

إعداد الطالبة:
حسيبة سباحي

إشراف الدكتور:
محمد زلاقي

السنة الجامعية: 2010 - 2011

"شكر و عرفان"

إلى حملة المشعل و قادة الأجيال لعبور الجسر بين اليأس و الرجاء.

إلى من كانوا و سيبقون مصابيح في دروب العلم و المعرفة .

لا يهم إن انطفأت هذه المصابيح يوما ...

لأن المهم أنها أضاءت ....

إلى الأساتذة الأفاضل الذين كانوا لي سندا و عونا في إنجاز عملي المتواضع هذا :

- **الأستاذ المشرف الدكتور محمد زلاقي**
- الأستاذ الكريم منير بن الذيب
- الأستاذ الكريم **النوري خدري**
- الأستاذة الفاضلة مديرة الإقامة الجامعية **سُعاد صليحُ** .
- الأستاذة نبيلة بونشادة .

إلى جميع المعلمين و الأساتذة ,أينما كانوا و حيثما وجدوا و خاصة **أساتذة المركز الجامعي** لميلة .

"إهداء "

أهدي ثمرة جهدي هذا إلى **'أمي'** ،**موطن الحب و الوفاء** ،**و لو** فديتها بروحي ما بلغت الثناء .

إلي منبع الكرم و العطاء الذي رعاني منذطفولتي 'أبي' العزيز و **الغالي على قلبي.**

إلى من سيكون رفيق عمري و نبراس حياتي و فقه الله و سدد خطاه كما يحبه و يرضاه .

إلى أسرتي الكبيرة كل بإسمه و خاصة الصغار الأبرياء : أميمة ، **ألاء ، رحمة** ، يوسف ، **عبد المؤمن ، و علاء** .

إلى كل زميلة أو صديقة **حالفني الحظ** بلقياها ،**و أنست و تشرفت** بزمالتها أو صداقتها، طوال مشواري الدراسي كل باسمها .

إلى كل من علمني حرفا ،حتى تعلمت كل الحروف .

و إلى كل من كان أو حاول أن يكون عقبة في طريقي لأنه لم يزدني إلا حماسا و قوة .

حفظ الله الجميع وغمرهم برعايته و لطفه .

"دعاء"

بداية أتوجه بالشكر إلى المولى العلي القدير الذي و فقني في دراستي و كذا في إنجاز بحثي المتواضع هذا .

اللهم لا تجعلني أصاب بالغرور إذا نجحت

و لا باليأس إذا أخفقت

و ذكرني أن الإخفاق هو التجربة التي تسبق النجاح .

اللهم إن أعطيتني نجاحا ،فلا تأخذ تواضعي

و إن أعطيتني تواضعا فلا تأخذ اعتزازي بكرامتي

اللهم أختم بالسعادة آجالي

و حقق بالزيادة أمالي

و أقرن بالعافية غدوي و أعمالي .

اللهم و فقني و سدد خطاي لما تحبه و ترضاه

و صل اللهم و سلم وبارك على سيدنا محمد و على اله و صحبه و من والاه .

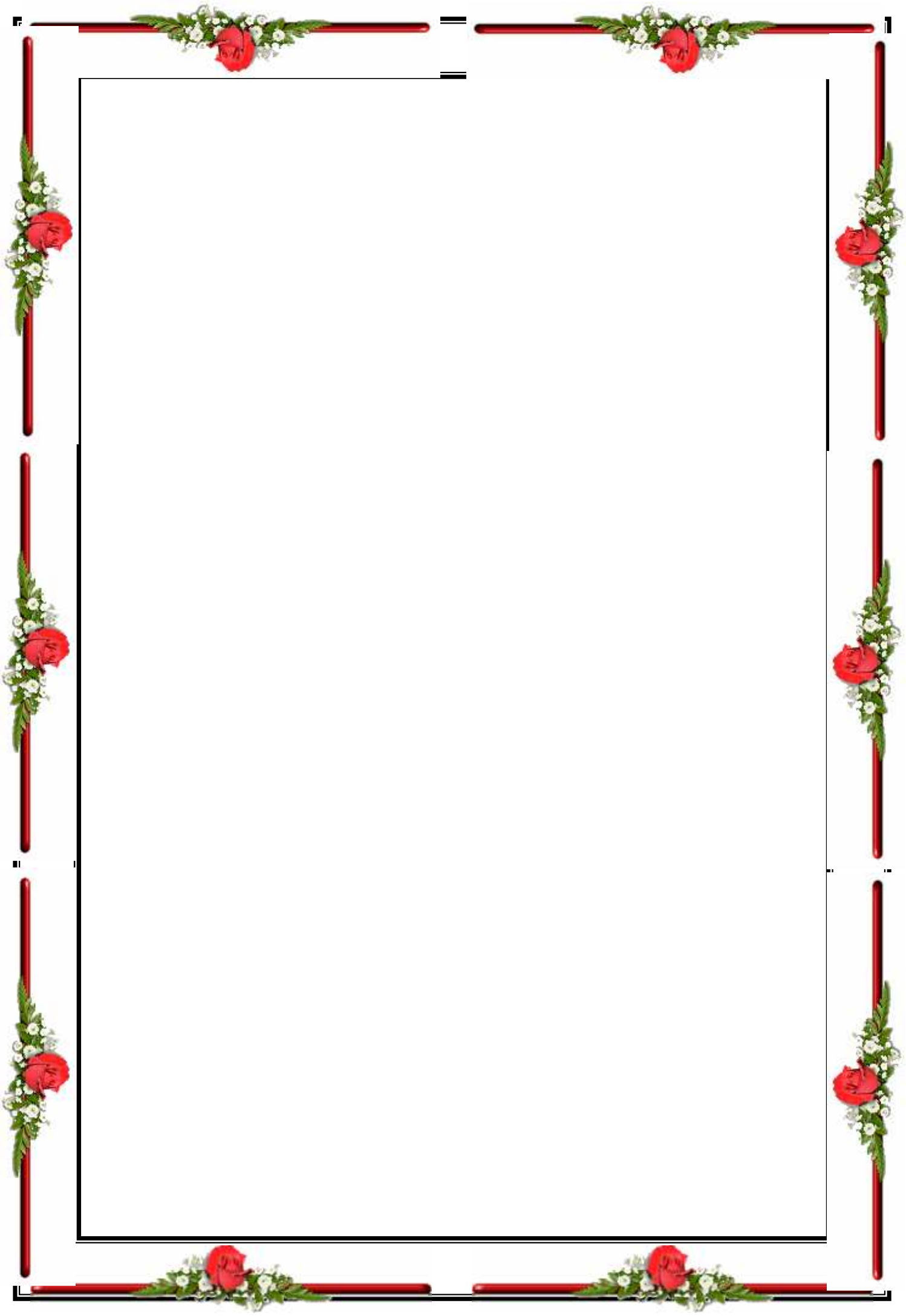

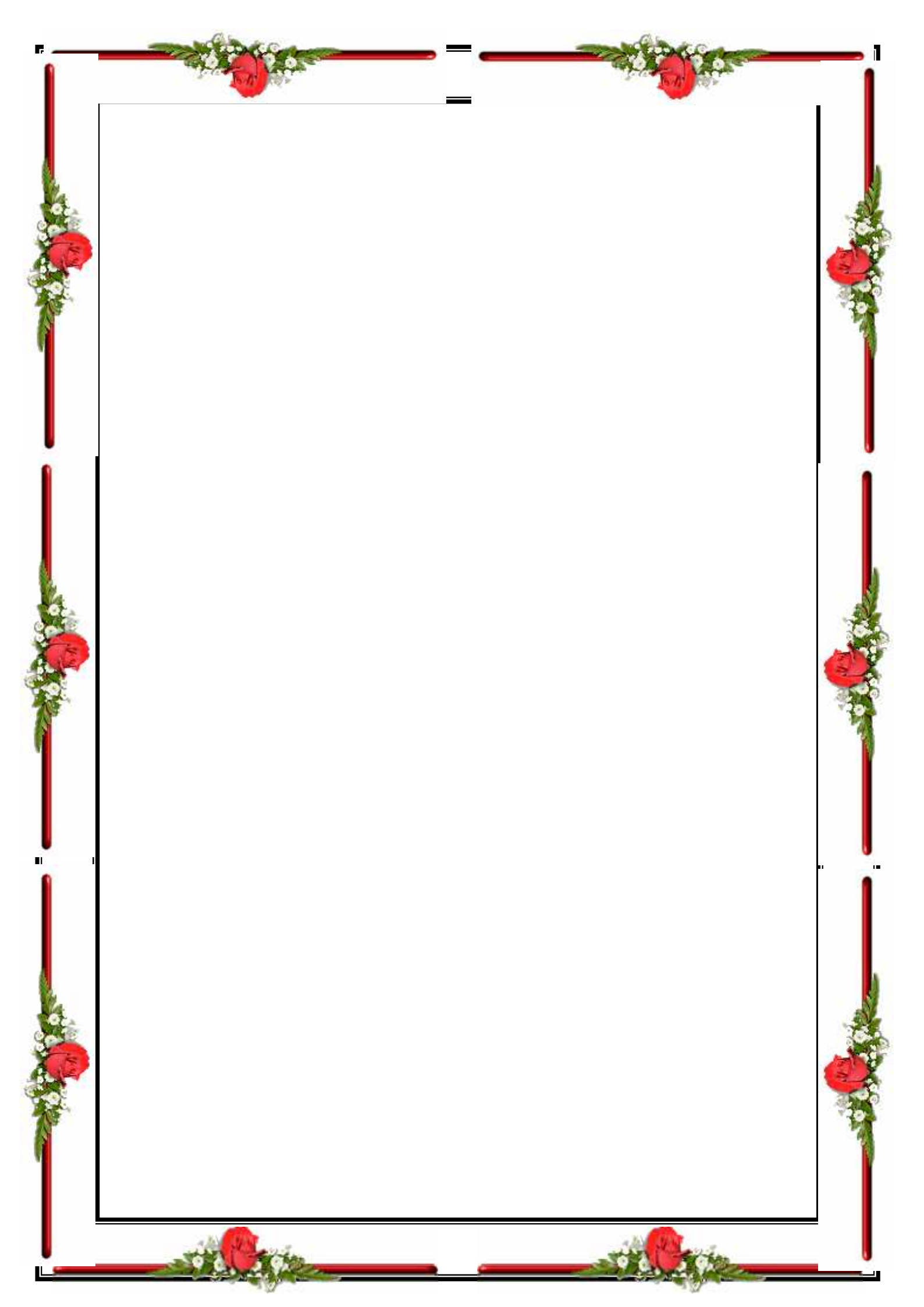

مقدمة :

إن الحياة البشرية سلسلة متعددة الحلقات ، تتلاحم و تتداخل فيما بينها لتنتج لنا كلا متكاملا،و يعد التراث إحدى تلك الحلقات ، لأنه جزء لا يتجزأ من عقل هذه البشرية ووجدانها ، ففيه تتجسد كل طموحاتها ، و أحلامها ، و سبل تقدمها و رقيها، مما جعله يحتل مكانة الذاكرة من الأمة التي ينتمي إليها ، فهو خلاصة ما تمتلكه من ماضي الفكر،و عبقريات أجيال مضت .

من هنا كان الحفاظ على التراث، و الحرص عليه لزاما على كل أمة عامة، و على الأجيال الآتية خاصة،و إلا حكم هؤلاء الأبناء على ذاكرة أمتهم بالفقد و الضياع و الفناء .

ولما كان تاريخ الأمة كما سلف الذكر مجرى متصلا يؤدي بعضه إلى بعض ، فإن فهم حاضر هذه الأمة يوجب بالضرورة فهم تاريخها عبر العصور، و إنما يعني هذا التحرر من عبء التاريخ و فهم ذات الأمة و تيسير بناءها لا العودة إلى الوراء، و كما انه لكل أمة فتراتها السلمية، فإن لها أيضا فتراتها الثورية، التي تعتبر انطلاقا صاخبا لقوى تجمعت خلال زمن من الكبت، أو التطور السريع الواسع ،أو تعبير عن غليان داخلي انفجر في ثورة صاخبة ، و هي فترات لها بالضرورة آثارها في الأيام التي تعقبها.

من هنا تتباين فترات تاريخ الأمة في سيرها عبر العصور، فقد يكون أثر فترة بعيدة أقوى تأثيرا في حاضر أمة من تأثير أخرى قريبة من هذا الحاضر .

و لعل ذلك يرجع إلى مدى التأثير و التأثر الواقع بين هذا الحاضر و تلك الفترة بغض النظر عن أسبابه .

و مما لا ريب فيه أن الأزمات في تاريخ الأمة تكشف بالضرورة عن تياراتها الخفية و جذورها العريقة ، وتلقي أضواء كاشفة على جوانب القوة و الضعف في حياة الأمة بصورة أخاذة أو مريعة ، لكنها على كل حال تكشف الكثير ، وتبصر الأمة بإمكانياتها و نواحي ضعفها، لتفتح لها المجال لمعالجة أمورها في جو أكثر إضاءة .

من هنا ساورتني فكرة إلقاء نظرة علمية نقدية على ظاهرة الشعوبية و أثرها في الشعر العباسي باعتبارها إحدى الثورات التي كان لها صداها الواسع في ذلك العصر، و في غيره من العصور ، محاولة إلقاء الضوء على هذه الظاهرة من خلال الإحاطة ببعض الجوانب التي رأيتها ضرورية.

وقد اعتمدت في دراستي هذه خطة عامة سرت على منوالها تتكون من مدخل يتضمن الجانب المفاهيمي في البحث ثم ثلاثة فصول و خاتمة .

حيث تطرقت في الجانب المفاهيمي إلى : مفهوم الشعوبية لغة و اصطلاحا ، و اختلاف مفهوم هذه الأخيرة متطرقة إلى حجج التفضيل و المساواة بين العرب .

و في الفصل الأول وقفت على أسباب نشأه الشعوبية و كذا بداياتها في العصرين الأموي و العباسي ، مع دراسة إسماعيل بن يسار كنموذج في العصر الأموي ، و بشار بن برد و

أبو نواس كنموذج في العصر العباسي لاحقا ، متطرقة إلى الحركة الشعوبية و مظاهرها في الشعر .

أما في الفصل الثاني فقد تطرقت إلى أشعر شعراء الشعوبية في الشعر العباسي و هما كما سلف الذكر بشار بن برد ، و أبو نواس، حيث تناولت في هذا الجانب التعريف بالشاعر و شعوبيته، في حين تناولت في الفصل الثالث موازنة فنية بين الشاعرين من خلال إبراز مزايا شعر كل منهما ، لأختم بعد كل ذلك بخاتمة تضمنت نتائج بحثي هذا يمكن تلخيصها في أن ظاهرة الشعوبية رغم كل الجهود المبذولة، و كل السبل التي سلكتها بين ظاهر و مستور في محاولة إرباك العقائد ، و تشويه المفاهيم الإسلامية، و محاولة زعزعة قاعدة المجتمع الإسلامي و أساسه ،إلا أن رسوخ الذات العربية جعلها تجتاز المحنة مع أن هذا لا يعني طبعا زوال هذه الظاهرة نهائيا.

و قد كان من بين أهم المصادر و المراجع التي اعتمدتها في بحثي هذا كتاب" جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب" لأحمد الهاشمي، كتاب "الزندقة و الشعوبية في العصر العباسي الأول" لحسين عطوان، و كتاب" الجذور التاريخية للشعوبية" لعبد العزيز الدوري، و كذا دواوين كل من:" بشار بن برد" و "أبو نواس" لمحمد الطاهر بن عاشور و علي فاعور، و رغم الصعاب التي واجهتني خلال انجاز هذا البحث من قلة المصادر و المراجع في هذا الموضوع، و كذا اتساعه و شموليته و عدم التمكن من حصره، إلا أن

توجيهات و دعم الأستاذ الدكتور المشرف، كانت عزائي لتخطي هذه الصعوبات، فله مني كل الشكر و العرفان.

و بعد هذا لا يسعني إلا أن احمد الله العلي العزيز و أثني عليه بما يسر و هدى، تماما كما لا يسعني إلا أن اثني الثناء الجميل على الأستاذ المشرف الكريم في تفضله بقبول الإشراف على البحث، ووقوفه معي بالتوجيه السديد ،و على من كل ساعدني وكان لي نعم العون والسند: الأستاذ الكريم" بن الذيب منير"، و الأستاذ:" خدري النوري".

الأستاذة الفاضلة مديرة الإقامة الجامعية" سعاد صليج"، و الأستاذة الفاضلة "نبيلة بونشادة".

مدخل :

إن ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى :" يا أيها الناس أنّ خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوب و قبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم ، إنّ اللّه عليم خبير " . و كذا في نداءه صلّى الله عليه و سلّم في خطبة الوداع حيث يقول :" يا أيهّا الناس، إنّ ربّكم واحد ، و أباكم واحد ، كلكم لآدم ، و آدم من تراب ، أكرمكم عند اللّه أتقاكم ، و ليس لعربي على عجمي فضل إلاّ بالتقوى ".

لدليل على أن الإسلام طالما كان و لا يزال دين أخلاق و تعاملات ، دين رحمة و مساواة و ذلك لما دعى إليه من خير و ما يحمله في طيّاته من مبادئ نبيلة ، و تعاليم سمحة و أخلاق رفيعة .

هكذا كان الإسلام و لا يزال ، و هكذا كان العرب في القديم تجمعهم مبادئ الأخوة .

إلاّ أننا لا نكاد نصل إلى عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه و ما شهده من أحداث في حرب صفين ، حتى نجد أن نيران العصبية قد بدأ لهيبها ، خصوصا بعدما راح خلفاء بني أميّة يسيؤون إلى الموالي ، و يرهقونهم بكثرة الضرائب ، و يعاملونهم تلك المعاملة الجائرة التي أثقلت كواهلهم ، و هم الذين تظاهروا باحتضان الإسلام بين حناياهم ، و قد سارت عدوى هذه المعاملة إلى أبناء عمومتهم الأقربين من آل البيت، الّذين انتزعوا منهم حق الخلافة ، ممّا أدّى إلى تصدّع وحدة الأمة و انقسامها إلى أحزاب سياسية نذكر منها ثلاث :

– حزب الشيعة الّذين تشيّعوا إلى بني هاشم آل البيت .

- حزب الخوارج الّذين خرجوا عن الإمام عليّ رضيّ الله عنه.
- حزب الزبيريين الّذين لم يعترفوا بخلافة بني أميّة .

و هكذا وجد الموالي في حزب الخوارج و الشيعة بغيتهم المنشودة، فانظموا إليهم و شاركوهم في ثورتهم الهادفة إلى تحطيم بني أمية.

و لمّا قامت الدّولة العباسية ، تغير الوضع و أصبحت كفّة العنصر الأجنبي هي الرّاجحة على العنصر العربي، فأصبح النّفوذ العربي ضعيفا مقارنة بالنفوذ الأجنبي، الّذي راح يتغلغل في مجال الحياة و المجتمع شيئا فشيئا، و هكذا تسبب هذا التحول و هذه المنزلة الرّفيعة الّتي تبوأها الفرس في المجتمع العباسي الجديد، في بروز ظاهرة أو بالأحرى نزعة عرفت "بالشعوبية "و هي نزعة قائمة على مفاخرة الشعب الفارسي، المستمدة من حضارتهم و ما يقابلها من بداوة و حياة تتسم بالخشونة و شظف العيش عند العرب .

و يمكن تقسيم أصحاب النزعة الشعوبية هذه إلى طائفتين: معتدلة، و متطرفة.

فأما المعتدلة فقد كان أصحابها ينادون بالتسوية بين العرب و سواهم من الشعوب الأخرى وفقا لتعاليم الإسلام ، و أما المتطرفة فقد كان أصحابها يزدرون العرب و ينزلون بهم إلى أسفل الدرجات بينما يفضلون الشعوب الأجنبية عليهم ، و يرفعون من شأنها ، و هي الطائفة التي تصدق عليها لفظة الشعوبية .

و قد تمخض عن هده الطائفة ثلاثة نزعات :

فالأولى هي نزعة رجال السياسية الذين أرادوا الإستئثار بالحكم و السلطان دون أن يكون للعرب في ذلك أثر .

و الثانية هي نزعة القوميين الذين اعتبروا العرب غزاة اجتاحوا ديارهم و قوضوا أركان دولتهم.

و الثالثة نزعة المجان الخلعاء الذين أعجبتهم و أغوتهم مفاتن اللهو و البذخ و الترف من خمر ، و مجون ، و فسق و سواه من مسرات الحياة .

و نذكر من أبرز الشعراء الذين أو قدوا نيران الشعوبية في هذا العصر : بشار بن برد، و أبو نواس باعتبارهما يشغلان الصدارة في هذا المجال، ذلك أن الأول كانت شعوبيته صارخة ربما لأنه كان زنديقا ، و عدوا للعرب و لدينهم الحنيف ؟.

و الثاني اتضحت شعوبيته من خلال شعره و ذلك في تهكمه بقيم العرب و عاداتهم و تقاليدهم، و على الرغم من حدة هذا التيار و ما يهدف إليه في السر و العلانية فان الروح العربية ظلت شامخة مسيطرة على الحياة الدنيوية و الروحية، و ذلك بدعم و مساندة كل من الخلفاء ، و رجال الدين و الدولة من ولاة ، و قضاة، و فقهاء ، و مستشاري الدولة ، و علماء اللغة ، ورواة الحديث و الشعر وسواهم .

و لكن ذلك لا يعني أنه لم يكن للشعوبية آثارها في الحياة ، أو دورها الفعال في تغيير الأوضاع في العصر العباسي على وجه الخصوص ، وفي المجتمع بصفة عامة و هو ما سيتضح لنا من خلال هذا البحث المتواضع .

الجانب المفاهيمـــي :

"إطلالة أدبية حول الشعوبية".

أولا: مفهوم الشعوبية لغة / واصطلاحا.

ثانيا: اختلاف مفهوم الشعوبية.

ثالثا: حجج التفضيل والمساواة بين العرب

أولا: مفهوم الشعوبية:

1-الشعوبية لغة:

جاء في تعريف الدكتور أحمد الوائلي للشعوبية ما يلي:

"والشعوبية لغة،جمع شعوب نسبة للشعب،وقد تطلق ويراد بها النزعة العدائية للعرب، ويعني بالإطلاق الثاني مصدر صناعي، والشعوب في إطلاق آخر هو الّذي يسوي بين العربي وغيره، ولا يفضل العربي"[1]

وجاء في القاموس المحيط: "والشعوبي بالضم محتقر أمر ا لعرب وهم الشعوب"[2]

وجاء في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وهو من أقدم الكتب التي حملت إلينا اسم الشعوبية :

"إن أصل كلمة الشعوبية مشتقة من كلمة شعب وجمعها شعوب، وهو الجيل من الناس ،وهي أوسع من كلمة قبيلة "[3]

ويقال أن اسم الشعوبية جاء نسبة للشعوب التي ذكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى:

"يا أيها الناس إنا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ،إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير"[4]

و قد قال المفسرون أن الشعوب في هذه الآية العجم والقبائل وهم العرب، وأيا كان تفسر هذه الآية من حيث الدقة والنسبية في الصحة، فالشعوبية نسبة إلى الشعوب الوافدة على الجزيرة العربية أو بعض

---

[1]- عبد العزيز الدوري-الجذور التاريخية للشعوبية ط03 دار الطليعة/ بيروت ص 12.

[2]- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي-القاموس المحيط ط08 مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر.

[3]- البيان والتبيين للجاحظ.

[4]- سورة الحجرات -الآية 13.

المستوطنة الذين يعودون في أصلهم إلى غير الأصل العربي ثقافة،وعرقا بعد اعتناقهم الإسلام، كما كانت هذه الآية أيضا من بين بعض شعارات المسلمين من غير العرب،الذين دعوا إلى التسوية تماما كما كان من شعاراتهم الحديث النبوي الشريف :" لا فضل لعربي على عجمي، كلكم لآدم وآدم من تراب "[1]

ثم توسع العرب بعد ذلك، فأطلقوا لفظ شعوبي على كل من يحقر، العرب وتوسعوا فيما بعد أكثر فأطلقوه على كل من الزنديق،[2] والملحد،[3] معتبرين الزندقة والإلحاد، مظهرا ينم على كره العرب لأنه كره لدينهم، ثم أطلق بعد ذلك على الموالي[4].

و هكذا يتضح أن الكلمة شعوبية تعني في المعني اللغوي، التحيز لغير العرب وكذا العداء لهم ولدينهم وتفضيل مختلف الشعوبية الأجنبية الأخرى.

[1]- رواه البخاري (حديث صحيح).

[2]- الزنديق: هو كل من يؤمن بكتاب المجوس، وهو في الإسلام الجاحد لشيء من الكتاب والسنة.

[3]- الملحد :من الإلحاد وهو لغة : الميل عن طاعة الله سبحانه وتعالى، إما بالمعصية أو بترك الواجب ، أما اصطلاحا فهو إنكار وجود الله سبحانه وتعالى أو ارتداد المسلم.

[4]- الموالي: هم المسلمون من غير العرب، وكانوا مواطنين من الدرجة الثانية.

2-الشعوبية اصطلاحا:

الشعوبية في المعنى الاصطلاحي:هي حركة ظهرت بوادرها في العصر الأموي، إلا أنها ترسخت في بدايات العصر العباسي، وهي حركة من يرون أنه لا فضل للعرب على غيرهم من العجم،وقد وصلت إلى حد تفضيل العجم على العرب، بل والانتقاص منهم وتحقيرهم.

ويعرفها حسين عطوان في كتابه* الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول:

" والشعوبية حركة ثقافية حضارية، توخي أربابها إعلاء الفرس على العرب، وهي تصور نمو وعي الموالي وإحساسهم بماضيهم واعتزازهم بتراثهم،وانبثاق النزعة القومية الانفصالية عند الفرس والخراسانية[1]".

ويقول عنها القرطبي:"هي حركة تبغض العرب، و تفضل العجم ".

و يعرفها الزمخشري :" ..هم الذين يصغرون شأن العرب ولا يرون لهم فضلا على غيرهم"[2].

وقد كان الشعوبيون يسمون حركتهم، "حركة التسوية " ومفادها التسوية بين حقوق العرب وحقوقهم.

ويرى المفكر الإسلامي على الشريعاتي:

"أن حركة التسوية تحولت تدريجيا من حركة تسوية إلى حركة تفضيل العرب على العجم، وعملت على ترويج المشاعر القومية وإشاعة اليأس من الإسلام إلى ضروب سلطة الخلافة [3]".

1- حسين عطوان –الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول – دار الجيل /بيروت ص 202

2 أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري–أساس البلاغة دار الهدى عين مليلة الجزائر–مادة ش–ع–ب ص 349

3 عبد العزيز الدوري الجذور التاريخية للشعوبية ص17.

ثانيا :تعدد مفهوم الشعوبية:

بعد انتشار الإسلام واتساعه على يد العرب، ومجيء العصر الأموي، الذي كان يعتمد على سيوف فارسية، اعتمد العرب على فتوحاته وتوسعه، ظهر التمييز بين العرب والموالي، حيث أحس العرب بتفوقهم وتفوق جنسهم،الذي كان منه الخلفاء،والأمراء، والكتاب، والشعراء، والفقهاء، فراحوا يفتخرون بجنسهم ولم يساووا بينهم وبين الموالي، وبخاصة الفرس.

و من هنا بدأ للشعوبية معنى جديد في التاريخ، يرمي إلى التعصب لغير العرب، واعتبارهم بتاريخهم العظيم أسمى من العرب، وقد قاد هذا الاتجاه يهود فارس، وساعد على ذلك أن الدولة العباسية قامت بسيوف فارسية، وأن مفكري الفرس اهتموا بالتفوق في مجالات الأدب، الشعر، التفسير، والفكر، مما ضمن لهم التفوق في المجال السياسي، والفكري، فأصبح الخلفاء يعترفون بفضلهم، وأصبح منهم العديد من الوزراء، لأدباء،الشعراء، المفسرين، والمؤرخين، وبدؤوا بحاضرهم وماضيهم يعدون أنفسهم أسمى من العرب، وبذلك آل معنى الشعوبية إلى معنى آخر مزدوج ،هو الحط من الجنس العربي من جهة، والنيل من الدين الإسلامي من جهة أخرى، ووسيلتهم لذلك التعصب لرفع شأن غير العرب وبخاصة الفرس، والتفاخر بأمجادهم ورقي حضارتهم، وما يتبع ذلك من تصغير شأن العرب والهجوم عليهم ووصفهم بأحقر الأوصاف.

وبغية ترسيخ أفكارها وأهدافها في ضمائر الناس وعجنها مع عقائدهم وإيمانهم، عمدت الصفوية إلى إضفاء طابع ديني على عناصر حركتها، وجرها إلى داخل بيت النبي إمعانا في التضليل ليمخض

عن ذلك المسعى حركة شعوبية مستغلة التشيع لكي تضفي على الشعوبية طابعا روحيا ساخنا، ومسحة قداسة دينية، ولم يكن ذلك الهدف الذكي متيسرا إلا عبر تحويل الدين الإسلامي وشخصية محمد وعلي إلى مذهب عنصري، وشخصيات فاشية تؤمن بأفضلية التراب والدم الإيراني، والفارسي منه على وجه الخصوص [1].

[1]ـ عبدالعزيز الدوري ـ الجذور التاريخية للشعوبية – ص17.

ويصور الجاحظ الحركة الشعوبية وأهدافها فيقول :" أن عامة من ارتاب في الإسلام، كانت الشعوبية أساس ارتيابه، فلا تزال الشعوبية تنتقل بأهلها من وضع إلى وضع،حتى ينسلخوا من الإسلام لأنه نزل على نبي عربي وكان العرب حملة لوائه عندما نزل".

أما طه حسين، فيرى أن مصدر الشعوبية ومنبعها كان نتيجة ذلك الصراع بين القدماء والمحدثين، وأن أمر العرب مع الفرس تماما كأمر الرومان مع اليونان من وجوه كثيرة ،فقد سبق الفرس إلى الحضارة والنظام ،واخذوا منها بنصيب موفور قبل أن يخضعوا لسلطان الأمة العربية، فلما جاء الإسلام وكان الفتح ،ومكن الله للعرب في بلاد فارس كان الجهاد والتغالب بين الحضارة الفارسية والبداوة العربية ، بين اللين والخشونة، بين الحياة المترفة المعقدة، والحياة الساذجة الهينة، ولم يكن هذا الجهاد عنيفا حين كانت الحياة المادية موضوعه، فكل الناس يؤثر اللين على الخشونة، ويفضل النعمة على البؤس، ويحرص على أن يستبدل الإثراء بالعدم، وإنما كان الجهاد عنيف بعض العنف حين كانت الحياة العقلية موضوعا له، فاشتد النضال بين أنصار العادات العربية القديمة، والسنن العربية الموروثة وأنصار العادات والسنن الفارسية.

و لم يكد ينقضي القرن الأول للهجرة، حتى ظهر انتصار الجديد، وأخذ القديم ينهزم أمامه، فانتصرت الحضارة واشتدت فيها رغبة العرب من أهل المدن، على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية، وكان هذا الانتصار عاما تناول الحياة المادية والعقلية وتناول معها حياة الشعور، ففكر العرب المحدثون بطريقة تخالف مخالفة شديدة تفكير العرب القدماء، وعاشوا في قصورهم عيشة تخالف عيشة آبائهم،

وقد آثر هؤلاء المحدثون من العرب عيشة الفرس وغير الفرس وتفكيرهم ،على عيشة العرب وتفكيرهم، ووجد هؤلاء الشعراء والكتاب والفلاسفة الذين كانوا يسخرون من كل قديم ويحتفلون بكل جديد، يجهرون بذلك حينا ويسرون حينا آخر يؤمنون معه دهرا ، ويلقون في سبيل الموت من وقت إلى وقت فوجد مطيع بن إياس الذي كان لا يبالي أكان عفيف أم مرذول السيرة، ووجد حماد عجرد الذي لم يكن يحفل بدين ولا بدنيا، إنما كان يأخذ اللذة حيثما وجدها، ووجد مسلم بن الوليد وغيرهم.

و كان أبو نواس زعيما لطبقة أخرى كانت اشد من الأولى فجورا، واقل منها حرصا على الاستتار.

على أن من الحق أن نعرف لأبي نواس شيئا غير هذا الفسق والإغراق في المجون، وهو أنه كان يريد أن يتخذ، ويتخذ الناس معه في الشعر مذهبا جديدا، هو التوفيق بين الشعر والحياة الحاضرة بحيث يكون الشعر مرآة صافية تتمثل فيها الحياة، ومعنى ذلك العدول عن طريق القدماء، وما ألفوه من ضروب العيش.

فإذا تغيرت ضروب العيش هذه، وجب أن يتغير الشعر الذي يتغنى بها ،فليس يليق بساكن بغداد المستمتع بالحضارة ولذاتها أن يصف الخيام والأطلال، وإنما يجب عليه أن يصف القصور ويتغنى بالخمر والقيان، فإن فعل غير ذلك فهو كاذب.

و لم يكن طه حسين يدعو إلى تجنب أساليب القدماء في وصف الأطلال والبكاء عليها وحدها، وإنما كان يدعوا إلى تجنب سنة الأولين القدماء في المعاني والألفاظ جميعا.

فهو يطالب الشعراء بأن يكونوا صادقين غير منافقين مع أنفسهم، فإذا نبذوا القديم واجتنبوه في واقع الأمر فمن الحق عليهم ألا يخففوا، يقول في ذلك:

لا تسقني إن كنت بي عالما **** إلا التي أضمرت في صدري.

هات التي تعرف وجدي بها **** وأنى بما شئت عن الخمر.

ياحبذا الجهر بأمر الصبا **** ما كنت من ربك من ستر

لذلك أثر العنف في خطاب خصمه، فأسرف في ذم القديم وأسفي على من يتكلفه وأسرف في مدح الجديد والحث عليه وتبرمه بأسد ومن يبكي على أسد، وإلى ذمه لتميم وقيس، ويخلص إلى احتقار القديم ويرفع من شأن الجديد، ويأخذ الناس بأن ينظروا إلى ما حولهم من جمال الطبيعة فيألفوه ويصفوه ولا يشغلوا عن رياض العراق وجناته بطلول الجزيرة وصحاريها.

على اعتبار أن شعر أبي نواس في الخمر كان يرمي إلى غرضين اثنين : الاعتراف بالجديد في الأدب، والاعتراف بالجديد في الحياة، بل نستطيع أن نوجز فنقول :" كان شعر أبي نواس كله رفضا للقديم في كل شيء وكلف بالجديد في كل شيء".

ثالثا : حجج التفضيل والمساواة بين العرب :

أ- حجج تفضيل العرب:

أقامت هده الفئة احتجاجها في ذهابها إلى تفضيل العرب على أربعة أسس:

فأما الأساس الأول، فمفاده أن العرب لم ينادوا لأي أمة أخرى، ولم يألفوا الخضوع لأي سلطة، ومن أي نوع كانت، وبذلك فهم الأفضل دوما مهما كان.

وأما الثاني فهو اجتماعي، وملخصه أن للعرب صفات وقيم ومناقب تميزوا بها دون غيرهم، ولم تجتمع في شعب مثلما اجتمعت فيهم ولهم، مما أهلهم ليحتلوا مكانة مرموقة ومرتبة عالية دوما.

وأما الأساس الثالث فهو ديني، وفحواه أن الرسول صلى الله عليه وسلم عربي، والرسالة إنما أنزلت في العرب، والقرآن الكريم كتب بلغتهم،إضافة إلى أنهم الذين حملوا أعباء الدعوة والتبليغ إلى سائر الناس والشعوب الأخرى، وصبروا على المشاق، وتحملوا مختلف الصعاب والحواجز، فهم أحق بغيرهم في الأفضلية لكل ذلك .

في حين كان الأساس الرابع فني، ومفاده أن اللغة العربية أسست لهم القياد، فجرت بها ألسنتهم خطبا وأشعارا وحكما وأمثالا على نمط رفيع من البلاغة، ودرجة عالية في البيان والبراعة اللغوية، وهي أسس كافية في إشعال نار الحسد في قلوب الشعوب المجاورة لهم.

ب-**حجج التسوية:**

و هي حجج دعاة التسوية بين العرب والشعوب الأخرى، وقد انطلقت هذه الفئة من منطلق إسلامي متذرعة بما ورد في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله المصطفى، ومن بين ما اتكأت عليه:

قوله تعالى : " يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ". [1]

و قوله أيضا :" إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم " .وكذا قوله صلى الله عليه وسلم :" الناس سواسية كأسنان المشط".

و قوله أيضا :" ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى". وهي آيات وأحاديث إن دلت على شيء فإنما تدل على أهمية نشر المساواة بين الناس، التي تعتبر من أهم ما دعا إليه القران الكريم والأحاديث النبوية على حد سواء.

ج – حجج تفضيل العجم على العرب :

أما حجج تفضيل العجم على العرب، فهي حجج من يفضلون العجم على العرب، وهم لا يعطون حججا كباقي الفئتين السابقتين لرأيهم وموقفهم،وإنما يكتفون بإدحاض حجج تفضيل العرب حجة حجه وانقاض دعواتهم دعوة دعوه،فهم يرون من حيث البيئة ،أن بيئة العرب فقيرة حتى من البشر ذلك أنهم قتلوا أبنائهم من إملاق كما ذكر القرآن الكريم، ووأدوا بناتهم، وما الشجاعة والكرم الذين عرف بهم

[1]- سورة الحجرات-الآية 13-

العرب إلا ادعاءات روجها الشعراء مبالغين فيها، أو مختلقين لها، والأمر نفسه بالنسبة للمجد والشهامة ،وغيرها من الصفات الأخرى فقد كانوا يغيرون على بعضهم البعض، ويسلبون أقربائهم وجيرانهم وحتى إخوانهم إن لزم الأمر، فكانوا يسلبون النساء فيأخذوهن سبايا ويعاشروهن دون زواج، كما كانوا يزوجون المرأة لأكثر من رجل في بعض عاداتهم وهو من أكبر الطعن في أنسابهم التي يفخرون بها.

و في المقابل كان الفرس والرومان يعيشون حياة الحضارة والاستقرار، كما كانت حياتهم ومدنهم الراقية، وملوكهم وقياصرتهم العظام.

و أما فخر العرب بنعمة الإسلام، فالإسلام ليس دينا قوميا لهم وحدهم ،فقد جاء للناس أجمع، ينضاف إلى ذلك أنه لوعدنا إلى الجذور التاريخية لوجدنا أن أول من تصدى للرسول صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته، وأول من تحالفوا ضده وتحزبوا في مواجهته وحربة، والدعاية ضده هم العرب حتى أن كثيرا منهم ارتد وإنما يعود ذلك لكرههم لما فرض الله عليهم من زكاة وكذا كرههم للمساواة بين الأسياد والعبيد وذلك لفرط عصيهم وجفاءهم.

فإذا كان العرب قد فخروا بنبي منهم فإن الأنبياء أغلبهم من غير العرب ،وإن كانوا قد فخروا بأشعارهم وخطبهم البليغة فإنهم لم ينفردوا بذلك دون سائر الشعوب الأخرى، فقد كان لليونان والرومان على سبيل المثال لا الحصر شعراء عظام، كما كان للرومان والفرس خطباء فطاحل ملكوا ألمنة القول وأزمة الكلام والبلاغة كما أعاب هؤلاء على العرب سوء تنظيم جيوشهم وبساطة وسائلهم وأدواتهم

الحربية وآلاتهم الساذجة، ناسين أن العرب رغم ما عاشوا عليه من بساطة في الوسائل وسذاجة في الآلات استطاعوا الانتصار والتغلب عليهم بعد إسلامهم.

الفصـــــل الأول :

" نشأة الشعوبية "

أولا: أسباب نشأة الشعوبية.

ثانيا : بدايــات الشعوبية.

أ- في العصر الأموي.

ب- في العصر العباسي.

ثالثا : الحركة الشعوبية ومظاهرها في الشعر.

أولا: أسباب نشأة الشعوبية:

في أسباب نشأة الشعوبية يقول الشيخ الوائلي أنها تنقسم إلى قسمين [1] :

القسم الأول فعل ، والقسم الثاني رد فعل .

فأما هذا الأخير (رد الفعل) فملخصه أن العرب كانوا في الجاهلية مفرقين لا تجمعهم جامعة وكانت الدولة لغيرهم ، فجاء الإسلام ووحدهم و أوطأهم عروش كسرى، فنظر العرب فجأة فإذا هم أمة عظيمة بيدها أكثر من سلاح ، تخافها وتهابها الأمم الأخرى كلها ، وتنظر أليها باحترام وتقدير وإجلال باعتبارها المبشرة بالإسلام والحاملة لتعاليمه ، مما فتح عندهم وفيهم روح الغرور وأخذوا يعاملون الشعوب التي افتتحوها معاملة فيها كثير من الغطرسة و الصلف، ولم يسووهم بهم بل راحوا إلى أبعد من ذلك، ومنعوا الموالي من التزوج بالعربيات ، والحقيقة هي أن فعل العرب بالموالي هذا ما هو إلا ردة فعل بما كان يعامل به العرب من قبل الروم والفرس وكان ما أشرت إليه من معاملة للموالي هو على مستوى سائر الناس .

أما القسم الأول والذي هو الفعل، فهو امتداد للعصور السالفة عندا ما كان العرب أيام الأكاسرة والأقاصرة ليس لهم شأن يذكر، وقد اختفت هذه النظرة للعرب لفترة طويلة بعد حكم الإسلام ، هذه الشعوب لكنها عادت إلى الظهور بحكم عوامل كثيرة .

[1]–عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ص112

ومما ساعد على ذلك أن الموالي كانوا من أمم ذات خلفية حضارية ، فكان أن نبغ مجموعة من الشعوبيين في مختلف الشؤون الإدارية والعلمية ، فلعبوا دورا كبيرا في إبعاد المجتمع المختلفة بالإضافة إلى ذلك فإن الدولة العباسية اعتمدت على كثير منهم وذلك لآمرين :

الأول هو حاجتها لتنظيم شؤون الدولة و الاستفادة من خبرات هذه الأمم في التطبيق وما لهم من قدم وعراقة في ذلك وتشابههم في البذخ والترف .

و أما الثاني فتمثل في الاستعانة بهم في كسر شوكة العرب وتحقيق مآرب العباسين في ذلك ، ولكنهم بعد ذلك قضوا على الخلافة العباسية وحتى على مظهرها العربي وأحالوا بغداد إلى مؤسسة انمحت فيها أثار العروبة في تفصيل ليس محله هنا .

وانطلاقا من مقولة أنه لا يوجد شيء من فراغ، نخلص إلى أن الشعوبية قد نشأت في العصر العباسي الأول تحت تأثير ظروف تاريخية معينة ، وبالضبط في وقت اشتداد الصراع بين العرب والفرس في ظل دولة بني العباس.

وبذلك نجدها (الشعوبية) تنتهي في كثير من الأحيان بالخروج على الإسلام وبالزندقة فهي تبدأ بالتهجم على العرب ،إلى مهاجمة العربية، لتنتهي بالهجوم على الإسلام .

وقد أدرك الجاحظ الصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة حين قال : " فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فإذا أبغض شيئا أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة

أبغض الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ عن الإسلام ، إذا كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف[1] ".

وهنا يبين الجاحظ الترابط بين العروبة والإسلام، كما يبين كيف أن العداء للعروبة يؤدي إلى الزندقة في كثير من الأحيان .

بينما يرى الدكتور حسين عطوان أن ظهور الشعوبية الفارسية يعزى إلى ثلاثة أسباب[2]:

أولها اجتماعي تدور كل شواهده على استعلاء العرب على الموالي، ذلك إنهم اعتدوا بصراحة أنسابهم وشرف أحسابهم فظنوا أنهم ليس كمثلها أمة، و أنّهم جنس لا يماثله جنس وكل ذلك سبب النصر الذي أحرزوه بتغلبهم على الفرس و الرّوم فتملكهم الشعور بالسّيادة و العظمة .

و من أجل ذلك كانوا لا يكنّون الموالي بالكنى، و لا يدعونهم بالأسماء و الألقاب و لا يمشون معهم في الصّف ، و لا يقدمونهم في الموكب ، حتّى أنهم كانوا يقولون: " لا يقطع الصلاة إلاّ ثلاثة حمار أو كلب أو مولى "[3].

و كانوا إذا مات مولى، يقولون هو مال الله يأخذ ما يشاء و يدع ما يشاء ، و كان الخاطب منهم لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها و لا إلى أخيها، وإنما يخطبها إلى مولاها، فإن رضي زوّج و أن زوجت من طرف أبيها أو أخيها بغير رأي مولاها فسخ النكاح وإن كان قد دخل بها، كما كانوا لا يزوجونهم العربيات الحرائر، و إن حضي أحدهم بواحدة منهنّ فرقوا بينه وبينها ، وكانوا لا يصلّون

[1]-ابو عثمان عمرو بن الجاحظ باعتناء عبد السلام هارون – البيان و التبيين – لجنة التأليف و الترجمة والنشر القاهرة ص14
حسين عطوان - الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول – ص 101.
3-المرجع نفسه ص101.

ورائهم ولا يدخلونهم مساجدهم ولا يسمحون لهم بالصلاة على الجنائز إذا حضر بعض العرب ، و كانوا يسخّرونهم عنوة ،فمما يروى أن العرب كانت إلى أن قامت الدولة العباسية، إذا أقبل العربي من السوق و معه شيء ، فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه ، فلا يمتنع ، و كان إذا لقيه راكب و أراده أن ينزل فعل ، ولم يكتف العرب بالاستعانة بالموالي فقط ، بل كانوا يستهينون بالمولّدين الذين آبائهم من العرب و أمّهاتهم من الإماء ، حتى أنّهم سمّوهم ب " الهجناء" تمييزا لهم عن العرب الأصلاء .

و ثانيها سياسي و تمثل كل أدلته نبذ الأمويين للموالي و إقصائهم لهم عن المراكز الحساسة بحكم تعصبهم للعرب، فكانوا إذا اختاروا واليا راعوا أن يكون من العرب ، و إن اختاروا قاضيا أو إماما اختاروه من العرب أيضا لأنّهم إن خرجوا عن ذلك ثار العرب عليهم ، و إن اختاروا مولى لوظيفة ما ، طالبوهم بعزلة من وظيفته تلك [1].

و كانوا يمنعونهم من الانضمام إلى الجيش العربي النظامي، لأنه كان مؤلفا على أساس قبلي فلا يقبلونهم إلاّ متطوّعين و محاربين راجلين، في حين يقاتل العرب على صهوات الجياد[2].

و كانوا لا يفرضون لهم العطاء ثابتا، ولا يستعينون بهم إلا عند الحاجة والضرورية.

أما السبب الثالث فهو اقتصادي، و يتجلى في إهمال الأمويين للشؤون المالية في البلاد المفتوحة و ظلمهم لأهلها من الموالي و أهل الذمة ، ولعل من أكثر الأخبار ذيوعا في هذا المجال ، ما

[1]-ابن عبد ربّه الأندلسي ، العقد الفريد ، ط 05 مطبعة لجنة التأليف و الترجمة ، ج 03 القاهرة 1367 هـ ، ص 413 – 417

[2]-تاريخ الطبري الجزء 07 ص 75 نقلا عن دار السجيل بيروت ص 102

فعله الحجّاج بالموالي و أهل الذّمة في البصرة بعد أن ثاروا عليه مع عبد الرحمان بن الأشعث ، و انتقل نفر منهم من القرى و نزلوا بالمدن.

فانكسر الخراج و نقص نقصا شديدا ، حيث أمرهم بالرّجوع إلى قراهم، و نقش على يد كل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها و لم يسقط الجزية عمن أسلم منهم [1].

وكذا شكوى أبي الصيداء صالح بن طريف مولى ضية إلى عمرو بن عبد العزيز ، إرهاق الجراح بن عبد الله الحكمي عامله على خرسان للمسلمين من مواطنيها الأصليين و عنقه بهم ، فقد رفع إليه أن عشرين ألف من أهل الذمة أسلموا يؤخذون بالجزية ، و يقال أن عمال خرسان استمروا يتلاعبون بالخراج و الجزية إلى أيّام نصير بن يسار،ذلك أنّه حين أعلن خططه المالية الإصلاحية ، وكلف منصور بن عمر بتنفيذها ، أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم و ثمانون ألف رجل من المشركين قد ألقيت عنهم جزيتهم ، فحول ذلك عليهم و ألقاه عن المسلمين .

[1]- حسين عطوان ، الزندقة و الشعوبية في العصر العباسي، ص 416

ثانيا: بدايات الشعوبية :

أ – في العصر الأموي :

ظهرت بوادر الحركة الشعوبية أول الأمر في العصر الأموي مع ظهور ممثليها بوضوح في مطلع القرن الثاني للهجرة ،بين شاعر يتغنى بأمجاد ساسان ، و زنديق يبشر بالمانوية ، وكاتب ينقل تراث الفرس القدماء في الحضارة والدّين ، ولكن بدايتها كانت محاطة بالغموض لأنها بدأت عملها في جو من الحذر و الكتمان ، بل إنه يتعذر علينا تحديد هذه البداية[1] .

و مع ذلك فإنه يمكننا القول إن نشاط الشعوبية قد اتضح في أيام المهدي ، مع أن المعلومات عن الجيل الأول من هؤلاء تشير إلى وجودهم منذ زمن المنصور، وإلى أن بعضهم من المخضرمين اللّذين عاشوا في أواخر العصر الأموي و أوائل العصر العباسي أمثال : عمارة بن حمزة ، وخلف الأحمر، ومطيع بن إياس ، و ابن المقفع ، كما أن طلائع النزاعات الفارسي في العصر الأموي تتمثل في شعوبي كإسماعيل بن يسار، و في زنديق كالجعد بن درهم [2] .

و رغم هذا فإن ملامح الشعوبية لم تتضح في العصر الأموي ،وإنما يرجع ذلك إلى قلة المعلومات من جهة ، وإلى طبيعة الجو السياسي حين ذلك من جهة أخرى ، فقد كانت تختفي وراء الدعوة بالمساواة باسم مبادئ الإسلام ، حيث كان التأكيد على فكرة التسوية الإسلامية يزداد قوة بين المسلمين بتغلغل مبادئ الإسلام وتوسع تياره ، سواء في القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية .

[1]-عبد العزيز الدوري الجدور التاريخية للشعوبية ص13
[2]-المرجع نفسه ص13

و لعل خير نموذج يمكن أن نتعرض له للشعوبية في العصر الأموي :إسماعيل بن يسار .

فمن هو هذا الشاعر ؟ و كيف كانت شعوبيته ؟؟ .

يعد إسماعيل بن يسار من أوائل من أعلن شعوبيته في الفترة الأموية الأخيرة ، هذا الأخير الذي يروى أنّه كان يتقرب من العرب حينا، فيتظاهر بالولاء للزبيريين حين خرجوا على الأمويين ، ثم يقترب من هؤلاء و يدّعي المروانية و يتظاهر بها حينا آخر، و لم يكتف بكل ذلك حتى إنه ادعى فيما بعد أنّه شاعر مضحك زيادة في التستر [1].

إلاّ أن شعوبيته سرعان ما انكشفت مع نظمه وكتاباته خاصة حين نظم مفتخرا بالفرس [2]:

ربّ خال متوج لي وعم **** ماجد مجتدى كريم النصاب .

إنّما سمي الفوارس بالفر **** س مضاهاة رفعة الأنساب .

فاتركي الفخر يا أمام علينا **** و اتركي الجور و انطقي بالصواب.

و اسألي إن جهلت عنّا و عنكم **** كيف كنّا في سالف الأحقاب .

إذ نربي بناتنا و تدسّون **** سفاها بناتكم قي التراب.

و كذا حين أعلن و بجلاء عن هذه النزعة في قصيدة انشدها أمام هشام بن عبد الملك يفخر فيها بالعجم و قد جاء منها :

من مثل كسرى و سابور الجنود معا **** و الهرمزان لفخر أو لتعظيم

[1]-عبد العزيز الدوري الجدور التاريخية للشعوبية ص24

[2]-المرجع نفسه ص24

أسد الكتائب يوم الرّوع أن زحفوا **** و هم أذلوا ملوك الترك و الروم

يمشون في حلق الماذي سابغة **** مشي الضراغمة الأسد اللهاميم

هناك إن تسالي تنبي بأن لنا **** جرثومة قهرت عزّ الجراثيم

و قد أدت هذه النزعة إلى التّنكر له و مطاردته أينما كان و حيثما وجد ، حتّى أنه جاء في كتاب الأغاني :

"و كان ابن يسار متبلي بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكان لا يزال مضروبا محروما مطرودا "[1]

و مما يروى عنه انه استأذن مرة على الغمد يزيد فحجبه ساعة ، ثم أذن له ، فدخل و هو يبكي ، فسأله الغمد عن سبب بكاءه . فقال : أنا على مروا نيتي و مروا نية أبي أحجب عنك؟ .

و حين خرج سأله أحد الحاضرين عن هذه المروانية فقال : "امرأته طالق إن لم تكن أمه تلعن مروان و اله كل يوم مكان التسبيح ، و إن لم يكن أبوه حضره الموت فقيل له قل لا أله إلا الله ، فقال : لعن الله مروان "[2].

و هو ما يوضح لنا مدى تستّره و شدّة الحقد عليه .

[1]-عبد العزيز الدوري **الجذور** التاريخية للشعوبية ص26

[2]-**ابو الفرج** الأصفهاني **الأغاني** الجزء الرابع طبعة دار الكتب مطبعة التقدم القاهرة

ب – في العصر العباسي :

اشتدّ لهيب نيران العصبية كما سبق و ذكرت منذ العصر الأموي ، و ما زاد من حدّتها أن خلفاء بني أمية باستثناء عمر بن عبد العزيز الذي لم تطل مدّة خلافته قد أساؤا إلى الموالي حيث أرهقوهم بكثرة الضرائب و عاملوهم معاملة جائرة أثقلت كواهلهم ، و هم اللّذين تظاهروا باحتضان الإسلام بين حناياهم ، بينما كانوا يحنون في الخفاء إلى دين آبائهم و أجدادهم ، وقد سارت عدوى هذه المعاملة السّيئة إلى أبناء عمومتهم الأقربين من آل البيت، اللذين انتزعوا منهم حق الخلافة ، ممّا أدّى إلى تصدّع وحدة الأمّة و انقسامها إلى أحزاب سياسية أقواها و أعظمها خطرا ثلاثة:

- حزب الشيعة اللذين تشيعوا لبني هاشم آل البيت
- حزب الخوارج اللذين خرجوا على الإمام علي رضي الله عنه منادين بأن لا حكم إلا لله .
- حزب أنصار عبد الله بن الزبير اللذين لم يعترفوا بخلافة بني أمية .

وقد وجد الموالي في حزب الخوارج و الشيعة بغيتهم المنشودة ،فانظموا إليهم و شاركوهم في ثورتهم الهادفة إلى تحطيم شوكة بني أمية حتى استأصلها أبو مسلم الخرساني داعية العباسيين بخرسان.

ولما قامت الدولة العباسية تغير الوضع وغدت كفة الأجنبي هي الراجحة على الكفة العربية إذ أصبح النفوذ العربي ضعيفا أمام النفوذ الأجنبي الذي تغلغل في مجال الحياة والمجتمع[1].

إن هذا التحول الخطير في زمام الحكم ،و ما غدا عليه الفرس من منزلة رفيعة في المجتمع العباسي الجديد، قد تسبب في بروز النزعة الشعوبية التي ظلت طوال العصر الأموي ضئيلة واهية

[1]- مصطفى بيطام-مخطوط مقدم لنيل شهادة الماجيستير- مظاهر المجتمع و مظاهر التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول

تلك النزعة القائمة على مفاخرة الشعب الفارسي للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم ، و ما كان العرب فيه من بداوة و حياة تتسم بالخشونة و شظف العيش [1].

ويمكن تقسيم أصحاب النزعة الشعوبية في العصر العباسي إلى طائفتين : معتدلة ،و متطرفة

فأما المعتدلون فينادون بالتسوية بين العرب و سواهم من الشعوب الأخرى وفقا لروح الإسلام و تعاليمه السمحة.وشعارهم في ذلك تطبيق الآية الكريمة :

" يا أيها الناس إنّ خلقناكم من ذكر و أنثى ، و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، إنّ الله عليهم خبير " . و نداء الرسول صلّى الله عليه و سلم المؤكد لها روحا و نصا .

و أمّا المتطرفون فهم اللّذين تصدق عليهم لقطة الشعوبية حقّا ، لأنهم لم يرضوا بالتسوية ، بل ازدروا العرب ، و نزلوا بهم إلى أسفل الدرجات ، وقدّموا الشعوب الأجنبية عليهم ، و نقّصوا من قدرهم ، و صغروا من شأنهم ، و قد تمخض عن هذه الطائفة نزعات عدّة نذكر منها :

- نزعة رجال السياسة اللّذين أرادوا الاستئثار بالحكم و السلطات دون أن يكون للعرب في ذلك أثر يذكر.

ص 404 نقلا عن :عثمان الموافي – التيارات الأجنبية في الشعر العربي – ص 241 .
2 – شوقي ضيف –تاريخ الأدب العربي -ا لعصر العباسي الأول - ص 75

– نزعة القوميين اللّذين اعتبروا العرب غزاة اجتاحوا ديارهم و قوضوا أركان دولتهم ، و كل ما فعله هؤلاء أنّهم أحيوا لغتهم و استرجعوا تقاليد دولتهم لا في موطن فارس فحسب بل حتى في مواطن عديدة .

– نزعة المجان الخلعاء اللّذين أعجبتهم حياة اللّهو و البذخ و الترف، من خمر و مجون و سواها من المسرات المدنية و الحياة الجديدة [1].

و لعلّ أبرز الشعراء الشعوبيين اللّذين أوقدوا نيران الشعوب في هذا العصر : بشار بن برد و أبوا نواس .

حيث كانت شعوبية الأول صارخة،لأنه كان زنديقا و عدوّا للعرب و لدينهم الحنيف كما يرى شوقي ضيف ،و كانت نزعة الثاني واضحة جلية من خلال شعره و ما حواه من تهكم بالعرب و بقيمهم و عاداتهم و تقاليدهم و أساليب قولهم الشعر كوقوفهم على الأطلال و المدن و بكائها و ذمه لحياة البادية و ما فيها من خشونة و بؤس و بالمقابل تفضيله لحياة آباءه و أجداده آل ساسان .

[1]-شوقي ضيف – تاريخ الأدب العربي - **العصر العباسي الأول**- ص 75 .

ثالثا : الحركة الشعوبية و مظاهرها في الشعر :

شهد العصر العباسي تقلبات سياسية و فكرية كان لغير العرب دور كبير فيها ، حيث كان لها تأثير بارز في فن ظهور التعصبات العرقية والعنصرية على درجات متفاوتة بين القوة و الضعف، و قد صاحب ذلك إيتاح الفرصة أمام غير العرب للتعبير عن رأيهم في هذه القضية و الدفاع عن مبدأ المساواة بين الناس بقوة و حرّية .

لكن موضوع التعبير العرقي و الشعور العنصري يبقى له دور في كثير من المواضع و المواقع .

إن تبلور الرواسب العصبية التاريخية في شرارة أبرزت الشعوبية ، فتذويب الفوارق بين الشعوب التي دخلت في الإسلام فريضة قائمة ، إلى آخر الدّهر، و استحياء أي عصبية جنسية ضرب من ضروب الجاهلين الأولى، و التي ذكرنا خلالها جذور و ملابسات العصبية فيها و خروج على دين الله القويم [1].

يقول الشيخ محمد الغزالي : " و قد أحس الفرس ،أن العرب اجتازوا دونهم السلطة فظاهروا على الحكم الأموي أهل البيت المعارضين له ، و أمكنتهم الفرص من إسقاط السلطة الأموية ".

و قد جاء العباسيون يعلنون أن دولتهم سوف تكون أقرب إلى تعاليم الإسلام ، و لا يفيد ذلك أن تكون مقاليد الأمور بيد الفرس، لكن الفرس هم أصحاب الدالة على الحكم الجديد و من حقهم أن يتصدّروا و يقودوا .

[1]- محمد الغزالي – معركة المصحف في العالم الإسلامي – القاهرة – نهضة مصر للطباعة و التوزيع 1996 ص 29-30.

وقد مشت الدولة معهم حينا ، وغدرت بهم حينا، ولم يكن لرجالها من التجرد بالمثل ما يضع الحق في نصابه ، و ينسي كل جنس نعرته المقيتة ، و هكذا فقد كان التنافس قائما بين التياران الفارسي و العربي في الاستئثار بالسلطان و الاستكثار من الإتباع .

و يجب أن نذكر أن ذلك التحزب برز بقوة بين المقربين من الحاكم ، و الطامعين في مغانمه ، أما جمهرة الأمة و السواد الأعظم من المسلمين فقد كانوا وراء الأئمة و العلماء و العباد .

" لكن إغراءات الحكم قوية و كذلك نداء الدم ، وقد اشتد النزاع بين العرب و الفرس ، بما فيهم الموالي و أعقابهم ، فجاء أحد الخلفاء وأراد ترك الفريقين معا و الاستظهار بجنس آخر فاستعان بالترك[1].

وكانت الطامة ، فأندفع الفرس– بما فيهم الموالي والشيعة– وراء دعوتهم القديمة للتسوية مع العرب وهي دعوة تفاوت فيها الموالي بين مطالب بالمساواة مع العرب على أساس الإسلام ، و مطامع في الأفضلية عليهم.

وكانت هذه الدعوة قد نشأت كاحتقان في النفسية الفارسية بسبب المواقف الأموية ضدهم ، وما زاد سعير هذه الدعوة حينما قوبلت بالاتهام بالزندقة وبمزيد من القتل .

فكانت النتيجة اشتداد الشعوبية وارتداد بعض دعاتها إلى الجاهلية.

[1]-محمد الغزالي - الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر - دار الريحانة - الجزائر-1988 ص30-35

ومما لا ريب فيه أن هذا الاتجاه –في جلب المعتصم للأتراك –لا يحل المشكلة ، فمع ضعف التقوى وضعف الروابط التي كانت تمسك الناس بالدين، فإن النار لا تزداد إلا اشتعالا ولا ينضم إلى الوقود القديم إلا الحطب الجديد، وهكذا جنى العباسيون عواقب هذا التخبط ، فكانت القرون الأخيرة من حكمهم بلاء وهدم لأشخاصهم بقدر ما هي هدم لقيم الإسلام[1].

هكذا وفي هذا الجو الحالك نشأت الشعوبية في المدونات واتخذت من الأدب وسيلة لزرع بذور العنصرية والكراهية في نفوس أبناء أمتها اتجاه العرب خاصة والإسلام عامة .

وقد كان الشعر أحد أهم فروع الأدب المستخدمة في هذا الإطار لكونه الأكثر التصاقا في عقول القراء والمستمعين والأسهل حفظا في الذاكرة .

فكان من أهم أعمدة هذا الأدب الشعوبي : الفردوسي ، الخيام ، أبو مسلم الخرساني ، أبو بكر الخزمي ، الردوكي ، إسماعيل بن يسار ، مهيار الديلمي ، بشار بن برد ، أبو نواس ، أبو القاسم الفردوسي ومحمود الغزنوي وغيرهم من الشعراء الذين راحوا ينظمون بين شاعر مفتخر بالنسب الفارسي ويعلي من قدره، وأخر يتهجم على العرب رافعا راية التحدي، وثالث يحاول استفزازهم و استنطاقهم بشتى الطرق و الوسائل،وان كانت الغاية المنشودة واحدة وهي محاولة الحط من الجنس العربي أينما كان وحيثما وجد بصفة خاصة ومن الإسلام بصفة عامة .

ولعل من أبرز الشعراء الذين تفوقوا في ميدان تحقير العرب وشتمهم محمود الغزنوي، الذي يروى انه قام في القرن الثالث للهجرة بتكليف الشاعر الشعوبي أبو القاسم الفردوسي بكتابة قصائد

[1]- ينظر محمد الغزالي – الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر -ص32-35.

شعرية يمجد فيها تاريخ فارس وحضارتهم ، ويشتم فيها العرب و حضارتهم الإسلامية ويحط من شانهم ثم تعهد له بأن يعطيه وزن ما يكتبه ذهبا .

فوضع الفردوسي –على هذا الأساس – ملحمته الشهيرة التي أسماها" الشاهنامة "، ووضع جلها في شتم العرب وتحقيرهم ، بالمقابل تمجيد الفرس وملوكهم وقد كان مما جاء فيها :

من شرب لبن الإبل وأكل الضب ؟

بلغ العرب مبلغا أن يطمحوا في تاج الملك ؟

فتبا لك أيها الزمان وسحقا .

وقد اعتبر بعض المؤرخين هذه الملحمة الشهيرة للفردوسي أولى أعمال الشعوبية ، وإن لم يعتبرها البعض كذلك.

أما في مقدمة من راحوا يفتخرون بالنسب الفارسي، فنجد على سبيل المثال لا الحصر : إسماعيل بن يسار الذي جاء في شعره:

أصلي كريم ومجدي لا يقاس به **** ولي لسان كحد السيف مسموم

أحمي به مجد أقوام ذوي حسب **** من كل قرم بتاج الملك معموم

جحاجح سادة بلج مرزابة **** جرد عتاق مساميح مطاعيم

و كذا بشار بن برد الذي يقول :

ونبئت قوما بهم جنـة **** يقولون من ذا و كنت العلم

ألا أيها السائلي جاهدا **** ليعرفني أنا أنف الكرم

نمت في الكرام بنو عامر **** فروعي و أصلي قريش العجم

أمّا مهيار الديلمي فيقول :

قومي استولوا على الدهر فتى **** و مشوا فوق رؤوس الحقب

عمموا بالشمس هاماتهم **** و بنوا أبياتهم في الشهب

و في التهجم على العرب نجد بشار بن برد الذي يقول :

أحين كسيت بعد العرى خزّا **** و نادمت الكرام على العقار

تفاخر يا ا بن راعية و راع **** بني الأحرار حسبك من خسار

و كذا قول الصغدي[1] و هو يتحدى و يدافع :

أب الصغد يأتي إذ تعيرني جمل **** سفاها و من أخلاق جارتي الجهل

و ما ضرني إن لم تلدني يحابر **** و لا تشتمل جرم عليّ ولا عكل

و النظر إلى قول بشار :

[1]- الصغدي : هو أبو يعقوب الخز يمي .
[2]- حسين عطوان -الزندقة و الشعوبية في العصر العباسي الأول- ص 193

و هجاني معشر كلهم **** حمق دام لهم ذاك الحمق.

ليس من جرم و لكن غاظهم **** شرفي العارض في سدّ الأفق.

و لم يكتف بعض الشعراء بالسخرية و التهكم من العرب كما سبق و ذكرنا كأبي نواس مثلا الذي راح يستفزهم و يحاول استنطاقهم من خلال أشعاره حيث يقول:

عاج الشقي على رسم يسائله **** و عجت أسأل عن خمّارة البلد.

يبكي على طلل الماضين من أسد **** لا درّ درك قل لي من بنو أسد.

و من تميم و من عكل و من يمن **** ليس الأعاريب عند الله من أحد .

و يقول في موضوع أخر :[2]

عاج الشقي على دار يسائلها **** و عجت أسأل عن خمارة البلد.

لا يرقئ الله عيني من بكى حجرا **** و لا شفى وجد من يصبوا إلى وتد .

قالوا ذكرت ديار الحي من أسد **** لا در درك قل لي من بنو أسد .

و من تميم و من قيس و إخوتهم **** ليس الأعاريب عند الله من أحد .

دع ذا عدمتك و اشربها معتقة **** صفراء تعبق بين الماء و الزبد.

كم بين من يشتري خمرا يلذّ بها **** و بين باك كل نؤي و منتضد.

و من هنا يكننا القول أن الشعر في العصر العباسي بصفة عامة ،و الشعر الشعوبي بصفة خاصة قد عبر و لو بالقدر القليل عن بعض اتجاهات الشعوبية من تفاخر بالنسب : الفارسي ، و تذكر للأمجاد القديمة ، و من دعوة إلى إعادة الملك إلى الفرس ، و هي صورة قصيرة عاطفية قدمها هذا الشعر و لكننا نبدأ التفكير الشعوبي أوضح و أشمل في باقي الآثار الأخرى[1]

[1]- عبدا لعزيز الدوري – **الجذور** التاريخية للشعوبية – ص 66.

الفصل الثاني :

1/ بشار بن برد .

أ- التعريف به .

ب- شعوبيته.

2/ أبو نواس.

أ- التعريف به .

ب-شعوبيته.

1/ بشار بن برد :

أ- التعريف به :

هو بشار بن برد بن يرجوخ أشعر مخضرمي الدولتين و رأس الشعراء المحدثين ، و ممهد طريق الاختراع و البديع للمتفننين ، و أحد البلغاء و المكفوفين [1].

و قد صرح باسمه في موضوعين من شعره الأول في قوله في الشطر الرابع عشر من **أرجوزة في ورقة** مئتين و ست و خمسين حيث يقول "ليس ابن نهيا من رجال بشار " ، و الثاني في قوله **في الملحقات :إذا انشد حماد فقل :أحسن بشار** "[2] وكان بشار **يكنى بابي** معاد و يلقب بالمر عث [3] بفتح العين المشددة ، و هو أكثر من ماعبّر به عن نفسه ،و قد قيل أنه لقب بذلك بسبب وقوع الكلمة في شعره إذ يقول [4]:

قال ريم مرعث **** يساحر الطرف و النظر.

لست والله نائله **** قلت أو يغلب القدر.

و قيل : لأنه كان لقميص جيبان يمينا و شمالا ، فشبهت تلك الجيوب بالرّعثة.

و قيل : لأنه حين كان صغيرا كان في أذنيه قرطان و القرط يسمى الرّعثة ، و هو الأقرب وذلك لسببين :

الأول: هو أن بعض النساء كانت تجعل لولدها الذكر قرط في أذن زاعمة أن ذلك يطيل في حياته

و الثاني أن الفرس كان من عادتهم ثقب أذن المملوك النفيس ، و وضع قرط ذهب في أذنه و لذلك يثقب المماليك عندهم بمثقوب الآذان .

وقد ولد بشار بالبصرة في حدود سنة ست و تسعين ،و بها نشأ في أسرة فقيرة رقيقة الحال ، فقد كان أبوه طيان يضرب اللبن بالبصرة ، و كان له أخوان بشر و بشير ، و كان قصابين يبيعان اللّحم ، و كان أحدهما أعرج و الثاني أبتر اليد ،فكان لهذه النشأة أثر كبير في شخصيته و نفسيته

و رغم كل ذلك فقد ذكر الرّواة أنه قال الشعر في سن العاشرة من عمره و استوى عود شاعريته و هو ابن ثلاثة عشر.

---

[1]- احمد الهاشمي – جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب .دار الجيل ص 545 .

[2]- الحافظ بن أبي بكر احمد بنعلي الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد – دار الكتب العربي – بيروت – ص 391

[3]- احمد الهاشمي – جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب – ص .545

[4]- محمد الطاهر بن عاشور – ديوان بشار بن برد- ص 7.

و هكذا اشتهر شعره حيث اختلف إلى الأعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة و الشعر.

وقد كان بشار ذكيا، فطنا رغم عمله منذ صغره، حتّى أنه يقول في موضع من شعره:

عميت جنينا و الذكاء من العمى **** فجئت عجيب الظن للعلم موئلا[1]

و كان كما يروى عنه أكمه ، مجدور الوجه ، قبيح المنظر، مفرط الطول ، ضخم الجثة ، متوقد الذّكاء ، لا يسلم من لسانه خليفة ، و لا سوقة ، و يألف و لا يألف [2].

و كان أوّل موضوع إتجه إليه الهجاء ، فكان يصبّ هجائه على كل من حوله من معارفه و جيرانه بالبصرة ،و مما يرى أن الناس كانوا يأتون أباه يشكونه إياه فكان يضربه ضربا مبرحا ، و كان يقول له : إن أتوك فقل لهم : " ليس على الأعمى حرج " ، فكانوا يقولون فقه برد ، أغيض لنا من شعر بشار .

و رغم ما عرف به بشار في هجائه للناس ، إلا انه كان يخشى هجاء الناس له ، فقد روى أبو الفرج أنّه هجا يوما صديقه زيد ، و حين رد عليه و هجاه ندم على تعرضه له ، و جعل ينطح الحائط برأسه غيضا [3].

و قد كان بشار بحكم نشأته في بني عقيل ، فاصدة بعيدا عن التردي في الخطأ ، حتّى أنّه يروى أنه قيل له يوما " : ليس لأحد من شعر إلاّ قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم و شك فيه ، و إنه ليس في شعرك ما يشك فيه " . فقال : و من أين يأتيني الخطأ؟ ولدت ها هنا ، و نشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من خطأ " .

و ممّا زاد من فصاحته ، و ثقافته ، و علمه ، و علو شأنه انه لم يكن مجرد إنسان يقول الشعر لنفسه ، ليتغنى به أول الأمر شانه شان كل شاعر ناشئ حتى يذيع أمره بطريق طبيعي سوي ، فما كاد يأنس في نفسه القدرة الشاعرة ، حتى بدأ يهرول إلى القمة غير عابئ بالسفح [1].

---

[1] -الحافظ بن أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي – تاريخ بغداد – دار الكتاب العربي – بيروت ص 391

[2]- أحمد الهاشمي – جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب – ص 545

[3]العربي حسن درويش – الشعراء المحدثون في العصر العباسي – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1989 ص 28 .

فراح يلتف حوله باحثا عن وجوه الشعراء، و أرفعهم منزلة ليتقرب منهم و يأخذ عنهم.

هكذا كان بشار ، و هكذا كان شعره فقد أعجب به تقريبا كل لغويين و نقاد و أدباء عصره ،فهذا عبد الله بن المعتز مثلا يروى أنه كان يقول : " الشعراء المطبوعون أربعة :" بشار و أبو العتاهية و السيد الحميري و أبو عبينة"[2] .

و كان الجاحظ يفضله على كل الشعراء المولدين و يقول فيه " ليس في الأرض مولّد قروي يعد شعره في المحدث إلاّ و بشار أشعر منه " ، و ربّما لهذا لام أبو عمرو بشار ، لأنه وضع نفسه في درجة حماد و نظاره في الشعر على بعد ما بينهما من الدرجة و المكانة .

و مما يروى أيضا أنّه سئل عنه و عن مروان بن أبي حفصة ، أيهما أشعر ؟ فقال : بشار .

فسئل عن السبب ، فقال : " لأن مروان سلك طريقا كثر من يسلكه ، فلم يلحق من تقدمه و شركه من كان في عصره ، و بشار سلك طريقا لم يسلك ، و أحسن فيه و تفرّد به ، و هو أكثر تصرفا في فنون الشعر و أغزر و أوسع بديعا [3].

و لكل ذلك أعتبر بشار كما سبق و ذكرت رأس مذهب المحدثين ذلك لأنه على أقل تقدير من أكثرهم حظوة عند النقاد القدامى و المحدثين على حدّ سواء.

و رغم انه كان لبشار اتباعا نهجوا نهجه و سلكوا طريقه ،نذكر منهم :

ابن هرمة ، و كلثوم بن عمرو العتابي ، و منصور النمري ،و أبو نواس ، و مسلم بن الوليد ، و البحتري ، و ابن المعتز إلاّ أن شهرته فاقت كل هؤلاء الشعراء حتى مطيع بن الياس الذي عدّه بروكلمان أول الشعراء المحدثين[4].

---

[4]-مصطفى الشكعة – رحلة الشعر –ط 1 أوت 1997 ، الدار المصرية اللبنانية ص 588 .

[2]- العربي حسن درويش – الشعراء المحدثون في العصر العبلسي ص 25

[3]- المرجع نفسه ص 21-22

[3] - العربي حسن درويش – الشعراء المحدثون في العصر العبلسي – ص 20

[4]- محمد الطاهر عاشور – ديوان بشار بن برد –

وقد اختلف في تاريخ وفاته ، **فهناك من قال توفي في بغداد سنة** سبع و ثمانين هجري، و هناك **من قال سنة** ثمان و ثمانين هجري ، و قيل سنة ست و ستين هجري، بعد أن شاخ و ابيض رأسه و لحيته ، و هو بذلك يكون قد عمّر طويلا و أنه توفي بعد أن جاوز السبعين[1] **من عمره و** يشهد لذلك قوله في قصيدته التي طالعها :

" **أبا** هلّ أني للحروب عداد ".

و كذا في قوله في هجاء أبي هشام الباهلي :

"**و حسبك أني** منذ ستين حجة أكيد عفاريت العدى و أكاد".

ب- شعوبيته:

كان بشار بن برد في طليعة الشعراء الشعوبيين و أفصحهم تعبيرا عن تلك النزعة ، و أكثرهم تمثيلا لجمهور الموالي في اتجاهاتهم و آ رائهم المتعلقة بهذه النزعة ، التي تمجد كل ما هو فارسي ، و تنبذ كل ما هو عربي، و قد كان صادقا في كل ما يعبّر عنه لأنه كان أعجمي الأصل أمّا و أبا فقد تربّى في بني عامر حتى أنّه كان يقول في أصله [1].

و نبئت قوما بهم جنّة **** يقولون من ذا و كنت العـلم.

ألا أيها السائلي جاهدا **** ليعرفني أنا أف الكـــــرم.

نمت في الكرام بنو عامر **** فروعي و أصلي قريش العجم.

و قد روى صاحب الأغاني أن بشار كان كثير التلون في ولائه، شديد التعصب للعجم [2].

و لعل ذلك يعود إلى نقطتين اعتبرتا نقطتا ضعفه ، و هما كفّ البصر،والميلاد على العبودية و ما أسهمتا به في حدّة مزاجه و بذلك أبعدته عن التوسط في الأمور، و وضعته في الطرف دائما سواء كان هذا الطرف أقصى اليمين أم أقصى الشمال ، و لعل فخره بالفرس إلى درجة يحط فيها من قدر العرب ، و فخره بالعرب و بكل من مضرو قيس، فخرا لم يرتفع إلى مستواه فيه شاعر ، لدليل قاطع على ذلك .

كان هذا هو نهج بشار يسم بهشعره، و يصدر به عن نبات أفكار إلى آخر أيّام عمره [3].

و كان هذا هو تطرّفه، تطرّف بين السخط و الرضا، و الإيمان و الإنكار، و الحبّ و الكراهية.

و لم يكن بشار يتردد في إرسال صرخته الشعوبية، بل كان يصرّح بآرائه و اعتقاداته دون خوف أو تستر، مما جعله يمهّد بذلك الطريق أمام كلّ حاملي لواء الشعوبية للتهجم عل العرب و نقدهم بأقبح الأوصاف.

1- أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – ص 21.

2- زاهية قدورة – الشعوبية و أثرها الاجتماعي و السياسي في الحياة الإسلامية – ص 110 .

3- مصطفى الشكعة – رحلة الشعر ص 661.

و قد كان من بين ما قاله ذات مرّة، مقولة يفتخر فيها بالفرس من جهة ،و يدّعي أن الرّوم أخواله و يعدد مظاهر الأبّهة التي كان عليها آل ساسان ذاكرا أبرز العادات و التقاليد العربية على وجه السخرية من جهة أخرى و يقول :[1].

هل من رسول مخبر *** * عني جمع العـــــرب.

من كان حيا منهم *** * و من ثوى في التـــرب.

جدّي الذي أسموا به **** كسرى وسلسن أبـــي.

و قيصر خالي إذا **** عددت يوما نسبـــــي .

كم لي و كم من أب **** بتاجه معتصـــــــــب.

أشوس في مجلسه **** في الجوهر الملتهـــــب.

مستفضل في فلك **** و قائما في الحجـــــب[2].

يسعى الهبانيق له **** بانيات الذهـــــــــب.

لم يسبق أقطاب سقى **** يشربها في العلـب [3].

و لا حداقط أبي **** خلف بعير جـــرب.

و لا أتى حنضلة **** يثقبها من سغـــب .

و لا أتى عرفطة **** يخبطها بالخشـــب [1].

1-محمد الطاهر بن عاشور – ديوان بشار بن برد- ص 389

2- الفلك : اسم دويبة توجد في البلاد الباردة من أوروبا و أسيا يتخذ من جلدها فرو يلبسه الملوك و الأمراء .

3-الأقطاب : جمع مفرده قطيب وهو الشراب الممزوج .

4-العرفط: نبت ترعاه النحل فيكون في عسلها رائحة غير محمودة.

5- الورل : دويبة مثل الضب ، أما منضنض :متحرك بذنبه و هي صفة ل ورل.

و لا شوينا ورلا **** مذضذضا بالذنـــب [2].

و لا اصطلى قطّ أبي **** مفججا للهب.

كما يقول أيضا في افتخاره بأصله [3].

و دعاني معشر كلهم **** حمق دام لهم ذاك الحمق.

ليس من فخر و لكن ساءهم **** شرفي العارض في سدّ الأفق .

و لم يكتف بشار بالافتخار بل كان لا يتردد في أن يهجوا العرب و يعدد مثالبهم ، و مما يروى في ذلك أن أعرابيا دخل على مجزأة بن ثور السودي بالبصرة و بشار عنده، و عليه بزة الشعراء ، فقال الأعرابي : من الرجل ؟

قالوا شاعر، قال: أهو مولى أم عربي، قالوا: بل مولى فقال الأعرابي: و ما للمولى و الشعر.

فغضب بشار وسكت هنيهة، ثم قال لصاحب البيت:

أتأذن لي يا أبا ثور؟ قال : قل ماشئت يا أبا معاذ ، فقال:[4]

خليلي لا أنام على اقتسار **** و لا أبى على مولى و جار.

فاخبر فاخر الأعراب عني **** و عنه حين تأذن بالفخار.

أحين كسبت بعد القرى خزيا **** و نادمت الكرام على العقار.

تفاخر يا ابن راعية و راع **** بني الأحرار حسبك من خسار.

و كنت إذا أضمنت إلى قراح **** شركت الكلب و لغ الاطار .

يريد لخطبة كسر الموالي **** و ينسيك المكارم صيد فار.

وتغدو للقنافذ تدريها **** و لم تعقل بدرّاج الديار.

---

[3]- أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – ص 50

[4]- أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – ص 33

و تنطشاوي الحرباء حتى **** تروح إليه من حب القتار.

مقامك بيننا دنس علينا **** فليتك غائب في حرّ نار.

و يقول في وصفه لجيش الدعوة العباسية و مجيئه إلى الشام بقيادة أبي مسلم الخرساني لمنازلة مروان بني محمد آخر خلفاء بني أمية ، و هو يفتخر بالانتصار الذي حققه [1].

إنا ملوك لم نزل **** في سالفات الحقب.

نحن خلبنا الخيل من **** بلخ بغير الكذب [2].

حتى إذا ما دوّخت **** بالشام أرض الصلب.

سرنا إلى مصربها **** في جحفل ذي لجب .

حتى استلبنا ملكها **** بملكنا المستلب.

و جاءت الخيل بنا **** طنجة ذات العجب.

حتى رددنا الملك في **** أهل النبي العربي.

نحن ذووا التيجان ول **** ملك الأثم الأغلب.

ولم يكتف بشار بهذه النزعة القومية ، بل تعدّاها إلى النزعة الدينية، فقد كان يدين كما يقول الأصفهاني بالرّجعة و يكفر جميع الأئمة، و يصوّب رأي إبليس في تقديم النار على الطين حيث يقول :[3]

إبليس أفضل من أبيكم آدم **** فتنبهوا يا معشر الفجار.

النار عنصره و آدم طينة **** و الطين لا يسموا سموّ النار.

وما جاء في هجاءه لواصل بن عطاء :[1]

---

[1]- محمد الطاهر بن عاشور – ديوان بشار بن برد- ص 390-391.

[2] - البلخ:دار إمارة خرسان.

[3] - محمد الطاهر بن عاشور- ديوان بشار بن برد- ص36.

الأرض مظلمة و النّار مشرقة **** و النّار معبودة مذ كانت النّار.

و مما يروي أيضا أن بشار لم يقف عند هذا الحدّ ، حدّ تفضيل النّار على الطين ، و إبليس على آدم ، فقد ذهبت به زندقته و مجوسيته إلى تفضيل شعره على القرآن الكريم دون حياء أو خجل و البينة على ذلك ما رواه صاحب الأغاني عن الفضل ابن يعقوب الذي يقول :

كنّا عند جارية لبعض التّجار بالكرخ تغنينا و بشار عندنا، فغنت بقوله :

إنّ الخليفة قد أبى **** و إذا أبى شيئا أبيته.

ومخضب رخص البنا **** ن بكى عليّ و ما بكيته .

يا منظرا حسنا رأيته **** من وجه جارية فديته.

بعثت إليّ تسومني **** ثوب الشباب وقد طويته.

فطرب بشار وقال : هذا و الله أحسن من سورة الحشر [2].

و لعلّ من أقوى الشواهد أيضا على عدم اهتمام بشار بالدّين و الواجبات الدينية، أنه لم يكن يقوم بالفرائض كالصلاة، فمما روى بعض أصحابه قولهم :

" كنّا إذا حضرت الصلاة نقيم إليها، و يقعد بشار، فنجعل حول ثيابه ترابا لننظر هل يصلي، فنعود و الترّاب بحاله و لم يقم إلى الصلاة " [3].

و من هنا يتضح لنا أن شعوبية بشار لم تكن مذهبيا أدبيا، أو نزعة ثورية كما كانت شعوبية أبونواس، و إنما كانت حقدا دفينا في فؤاده على قوم كان يرى أنهم أرادوا التطاول عليه وهم دون مستواه ، كما كانت نزعة سياسية كما يقول إيليا الحاوي، اتخذها نارا حامية ينقم فيها على من أساء إلى ملك أبائه وأجداده .

[1] - الجاحظ – البيان و التبيين – ص24.
[2] -ابوالفرج الأصفهاني- الأغاني- ص55.
[3] -الشريف المرتضى - أمالي المرتضى- الجزء الأول- ص 138

2/ أبو نواس :

أ-التعريف به:

هو أبو علي الحسن بن هانئ ، بن عبد الأول ، بن صباح الحكمي بالولاء . [1]

ولد في أهواز ، من بلاد خوزستان ، جنوب غربي إيران ، وقد أختلف في تاريخ مولده ، فهناك من قال سنة مئة وست و ثلاثين هجري ، وهناك من قال سنة مئة و خمس و أربعين هجري وقيل سنة مئة و ثمان و أربعين هجري ، وقيل سنة مئة و تسع و أربعين هجري [2].

غير أن الكثير من الباحثين يميلون إلى سنة مئة و خمس و أربعين هجري ، وهي السنة التي بدأ فيها الخليفة المنصور بناء بغداد ، وكأن القدر أراد أن يربط بين ظهور شاعر اللهو الأكبر، وظهور بغداد المدينة اللاهية ، كما اختلف في مكان مولده ، وكان المجمع عليه أن أصله من خور الأهواز [3].

وهو من أب يمني دمشقي، اسمه هانئ من موالي الحكم بن سعد العشيرة من قبيلة مذحج اليمنية، ولهذا يلقب أحيانا "الحكمي" ، وأم فارسية اسمها "جلبان" والمرجح أن والده كان من جند مروان بن محمد أخر خلفاء بن أمية في دمشق [4].

كان مستقرا في دمشق ثم هاجر إلى الرباط بالأهواز في بلاد فارس ، وهناك رأى جلبان على أحد الأنهار فأعجبته ، فتزوجها وأنجب منها عدة أولاد نذكر منهم : أبو معاذ وأبو نواس.
ويقال انه كني بأبي نواس لذؤابتين من الشعر كانتا تنو سان على عاتقه ، ويقال بل تكنى بذلك تشبها بذي نواس أحد تبابعة اليمن [5].

---

[1]- علي فاعور – ديوان أبو نواس – منشورات محمد علي بيضون – دار الكتب العلمية -ط3 بيروت لبنان ص4
[2]- المرجع نفسه ص6
[3]-المرجع نفسه ص10
[4]-احمد عبد الستار الجواري –الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث هجري-ط1 – المؤسسة العربية للدراسات و النشر- بيروت 2006ص 134
[5]-المرجع نفسه ص4.

ومهما يكن من أمر فإن الصبي لم ينعم طويلا بحياة الأسرة الهانئة، فقد مات أبوه وهو في السادسة من عمره وسرعان ما تزوجت أمه بعد ذلك من رجل أسمه العباس، لينشأ أبو نواس بعيدا عن رقابة والديه ، ومع ذلك ورغم صغر سنه فقد تعلم العربية ، ورغب في الأدب ، لكن أمه لم تعبأ بحاله وشغفه إلى الدراسة، وأرسلته إلى عطار بالبصرة ليبري عيدان الطيب ، ثم شاءت الصدف بعد ذلك أن يلتقي "بوالبة بن الحباب الأسدي" الذي قدم من الأهواز إلى البصرة يشترى حوئج وبخورا، فاشترى منه عودا هنديا ثم ذهب ليبريه عند أبي نواس ، وما كاد يراه حتى كاد عقله يذهب، فلم يزل يختدعه حتى صار إليه ، فحمله إلى الأهواز وقدم به الكوفة.

فشاهد معه أدباءها في ذلك الوقت وتأدب بأدبهم [1] وهكذا مضى أبو نواس يضرب في شعاب الحياة اللاهية الماجنة خليع العذار، دون رقابة أو رعاية من أب يحافظ أو أم تعتني به [2] ، خاصة وأن أستاذه والبة كان معروفا بانحرافه وشذوذه إدمانه الشراب والإكثار من الحديث عنه في شعره، فتلقى أبو نواس منه كل ذلك ليقضي فترة شبابه مترددا بين الكوفة والبصرة ، وهما مدينتان تعرفان بمراكز اللهو الكبرى في هذا العصر ، ثم رحل مع والبة إلى بادية بني أسد وأقام فيها سنة كاملة ، وهناك أخذ اللغة من منابعها الأصلية حيث تلقى فيها الفصاحة من الأعراب وتعلم لغات العرب وحفظ الكثير من شعرهم ، مما أكسبه السليقة اللغوية.

ليعود بعد ذلك على عهد خلافة الرّشيد إلى بغداد، أين أذن له الرشيد بمدحه بقصائده طنانة ثم انقطع إلى مدح محمد الأمين الذي ثبت عنده بعض ما يوجب تعزيزه فسجنه [3].

كما مدح" الخصيب" وهو أحد ولاة الرشيد في مصر، ونال بذلك جوائز قيمة، ليعود في النهاية إلى بغداد ، لكنه ظل متصلا ببلاط الخليفة الرشيد حتى قامت الفتنة بعد موته بين الأمين و المأمون و تروى له المدائح في الأمين بعد توليه الخلافة ، ثم أغمض عينيه الإغماضة الأخيرة في أواخر القرن الثاني .

[1] - علي فاعور – ديوان أبو نواس – ص5
[2] - يوسف خليف – في الشعر العباسي نحو منهج جديد – ص 48.
[3] - أحمد الهاشمي – جواهر الأدب في أدبيات و لغة العرب – ص 146-147

وكما اختلف في تاريخ مولده ، فقد أختلف في تاريخ و فاته[1] , فقد ذكر الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد"سنة مئة و ثمان و تسعين هجري، في حين ذكر ابن قتيبة "في الشعر و الشعراء " سنة مئة وتسع و تسعين هجري، كما ذكرت أيضا سنة مئة وسبع و تسعين هجري

و كذاسنة مئة وست و تسعين هجري، و ليس من اليسير أيضا أن نرجّح إحدى هذه الرّوايات ، و إن كان بعض الباحثين يميلون إلى سنة مئة وسبع و تسعين هجري، بناءا على أن أبا نواس لم يشر إلى الفتنة التي حدثت بين الأمين و المأمون ، و يرون أنه لو كان حيّا لكان له شعره في ذلك ,و هي فتنة كانت سنة مئة و ثمان و تسعين هجري، و إن كان هناك من قال أن ذلك غير صحيح، فقد ذكر ابن قتيبة" في الشعر و الشعراء " و القالي في" ذيل الأماني" أبياتا له يرثي بها الأمين يقول في مطلعها :

طوى الموت ما بيني و بين محمد **** و ليس لما تطوي المنية من شر[2].

و قد كان أبو نواس كما قيل عنه، جميل الصورة، فكه المحضر، كثير الدعابة،حاضر البديهة متينا في اللغة و الشعر و الأدب [3].

أما عن علمه وشعره، فقد أجمع أكثر علماء الشعر و نقدته، وفحول الشعراء أنّ أبا نواس كان أشعر المحدثين بعد بشار و أكثرهم تفننا و أبدعهم خيالا، مع دقة لفظ و بديع معنى.

يقول عن نفسه : " ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهنّ الخنساء و ليلى فما ظنك بالرّجل "؟ [4].

و كان الجاحظ يقول عنه: " ما رأيت رجلا أعلم باللغة و لا أفصح لهجة من أبي نواس " [5].

و كان أبو عبيدة يقول : " ذهبت اليمن بجدّ الشعر و هزله ، امرؤ القيس بجدّه، و أبو نواس بهزله " [1].

---

[1] - يوسف خليف ، الشعر العباسي نحو منهج جديد ص 48

[2] - علي فاعور ، ديوان أبي نواس ص

[3] - أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب في أبيات و إنشاء لغة العرب ص 546-

[4] - علي فاعور، ديوان أبي نواس – ص 06

[5] - المرجع نفسه – ص 06

و خلاصة القول إن أبا نواس يعتبر أول من فتح للشعراء باب المعاني ، و أرشدهم إلى طريق الشعر و التصرف في فنونه، فهو و لا ريب أوّل من نهج للشعر طريقة حضرية ، و أخرجه من اللّهجة البدوية ، و نظم في شتّى أغراضه و فنونه، إضافة إلى أنه يعتبر شاعرا لخمر الأكبر في تاريخه الطويل على امتداد عصوره، و تعدد بيئاته ، فليس في تاريخ الشعر العربي أجمع، شاعر شغل بوصف الخمر كما شغل به أبو نواس سواء أتعلق الأمر بمن سبقه أو بمن جاء بعده.

فهو لم يترك جانبا من جوانب هذا الموضوع إلاّ و شارك فيه، حتى ليبدوا لنا ديوانه و كأنه قصة خمر من بدايتها إلى نهايتها، سجلتها ريشة فنّان مشغوف بها، مفتون بحبها، يعيش لها و لأجلها و يهبها كلّ طاقته الفنية.

فخمرياته استوفت فنّ القديم من خلال ظاهرة التقليد و اللّجوء إلى النزعة المادية الموضوعية التي نراها في وصف الكؤوس و الأباريق و الدّنان ، و في وصف الجواري و الغلمان ، و الحانات ، و مجالس الشراب ، و في الوقت ذاته معجم شامل لأصناف الخمر و نعوتها من صفراء و صبوح و صافية ودّرة و كرخية و غيرها .

و هكذا فقد ولد أبو نواس معاني جديدة لم يسبق إليها، حيث ضمّت خمرته معطيات علمية و فلسفية و أفكارا جديدة و نزعات سياسية و اجتماعية، قل نظيرها في شعر من سبقه و من عايشه من الشعراء، و كيف لا ؟ و هو الذي صور خمرته فتاة بكرا ترفل بأثوابها و تراود عشاقها تتعذب و تغار ، و أخيرا تخطب و تتزوج بعد أن تمهر[2] .

هذا هو أبو نواس شاعر الخمر الأكبر ، أو كما قال عنه الدّكتور" شوقي ضيف "أستاذ فن الخمرية في الشعر العربي غير مدافع [3]، فقد استوعب كلّ التراث الخمري الذي خلفه الشعراء القدامى منذ العصر الأول ، و احتفظ به في أعماقه رصيدا ثريا يتصرف فيه كيف يشاء و يضيف إليه جديدا كثيرا يستمدّه من تجربته التي عاشها حتى قرارة الموجة العالية التي ركبها .

---

[1]- المرجع نفسه – ص 06

[2]- علي فاعور ، ديوان أبي نواس ، ص 08

[3]- يوسف خليف ، الشعر العباسي نحو منهج جديد ، ص 55

ب - شعوبيته :

على الرغم من أنه لا يكاد يذكر أبو نواس إلاّ و تذكر معه الثورة على وصف **الأطلال ، ذلك** التقليد الفني الذي استقر في **فواتح** القصائد العربية منذ الجاهلية ، و ظل من أبرز **مميزاتها** و أشهر تقاليدها في العصور اللاّحقة ، و في كل بلد غرس فيه أبناء العرب شجرة الشعر سواء في **مشارق الأرض أو في مغاربها.**

على الرغم من كل ذلك إلا أنه لم يكن أوّل من دعا إلى نبذ الوقوف على الدّيار الداثرة **و** الإعراض عن وصفها و افتتاح القصائد بها،كما لم يكن وحده **من رفع لافتات الثورة في العصر العباسي .**

فمما يروى أن أوّل من رفع صوته مناديا بترك الوقوف على المنازل العافية و وصف ما فيها من آثار بالية هو" الكميت بن زيد" **في العصر الأموي،** إلا أن صوته لم يكن مدويا بحيث تتجاوب **أصداءه في كل مكان،** و قد أرجع سبب عدم توفيقه في محاولته هذه إلى أنه لم يقرن صوته بمحاولات جادّة لاستحداث ألوان من المقدمات تكون مستخلصة من طبقة الحياة لعهده ، و معبّرة عنها أو مصوّرة لها بحيث تكون طراز العصر الذي يتهافت الشعراء عليه و يروجون له فقد قصر جهوده على أن يبين عدم اهتمامه بالأطلال لا غير .

و الراجح أن أبا نواس هو الذي دعا بقوة إلى إهمال استهلال القصائد بوصف الأطلال ،**و** سخريته من المتمسكين بهذا التقليد ، فرغم أنه لم يكن يصول في الميدان وحده ، فقد شاركه في ثورته دعاة كثيرون ينا دون بالتجديد نذكر منهم : أشجع السلمي ، أبا حيان الموسوس ، ديك الجن **الحمصي** ، عبد الله بن أمية و أبو محمد عبد الله بن أحمد بن يوسف و غيرهم من الشعراء الذين راحوا يدعون دعوات مختلفة تتراوح بين شاعر يؤثر تغيير مقدمة بأخرى، **و آخر** يفضل ترك المقدمات كلّها و الأخذ بأهداب الموضوع مباشرة دون بسط أو تمهيد .

إلاّ أنه كان أهم من حمل رايات هذه الثورة و رفع شعاراتها و عمل على نشرها و إعلانها على الإطلاق حتى غطّت شهرته على غيره من هؤلاء الشعراء.

كلّ ذلك جعل من الشعراء و النّقاد يصفون شعوبيته بأنّها مجرد ثورة على القديم ،و بخاصة على تلك التقاليد الفنية التي لزمها المحدثون و اتبعوها كالوقوف على الأطلال ، و بكاء الدمن ، و مساءلة المنازل خصوصا أنه راح بذلك يتحامل على العرب و يحطّ من شأنهم و عاداتهم و معيشتهم ، لا لشيء فقط لأنهم كانوا متمسكين بتلك التقاليد التي كان يرى فيها ضعفا و هوانا سالكا في ذلك مسلكا بارعا توصل من خلاله إلى إظهار مزايا الحياة العباسية المترفة و عيوب الحياة البدوية الخشنة .

و لما كانت الحياة الشعوبية كنزعة تحمل في طياتها تمجيد كلّ ما هو فارسي و الإعراض كل ما هو عربي ، فقد تطوع أبو نواس و من تلقاء نفسه لخدمة هذه النزعة ، و ظل ينقاد بروحه الشعوبية إلى بناء أسلوب جديد ينقض به الأسلوب القديم من وقوف على الأطلال ، و بكاء على الدمن . و وصف النوق و الوحش و غيرها ، فراح يستهزئ بالشعراء الذين يفعلون كل ذلك و يدعوهم إلى إتباع مذهبه في اغتنام اللّذة، و إلى تصوير حياتهم و بيئتهم الحاضرة لا حياة الأعراب و بيئة البادية .

و قد كان مما قاله في ذلك :

دع الرسم الذي دثرا **** يقاسي الريح و المطرا.

و كن رجلا أضاع الط **** م في اللّذات و الخطرا.

ألم ترما بنى كسرى **** وسابور لمن غبرا.

منازه بين دجلة و ل **** فرات تفيأت شجرا .

فأرض با عد الرحمان **** عنها الطلح و العشرا .

و لم يجعل مصايدها **** يرابيعا و لا وحرا .

و هي أبيات تحوي كما نرى افتتان هذا الأخير بالحضارة و مظاهرها ،فهو يدعوا الشعراء إلى الوقوف على مل تزخر به ضواحي الفرات و دجلة من آثار فارسية ، وما شيده كسرى وسابور

من حدائق و جنان و منتزهات تعدّ آية في الجمل و حسن المظر، بل الوقوف على الأطلال و الرّبوع الخالية التي لا تنبت سوى الطلح و العشر، و لا تصلح إلا لصيد اليرابيع و الوحر .

وها هو ذا في موقف آخر يصور لنا كيف أن العربي لا يعرف سوى شرب اللّبن و الحليب داخل الخيم في حين يعيش آل ساسان في ترف كامل ,متسائلا عن الفرق الشاسع بين هؤلاء و هؤلاء يقول :

فهذا العيش لاخيم البوادي **** و هذا العيش لا اللّبن الحليب.

فأين البدو من ايوان كسرى **** و أين في الميادين الزّروب.

و من هنا يمكن القول أن شعوبية أبي نواس كما سبق و ذكرنا لم تكن عداءا خالصا للعرب كما كانت شعوبية بشار، و إنما اقتصرت على ثورته على تلك التقاليد الفنية التي تمسك بها العرب و جعلوا منها مثلا أعلى في شعرهم، فهو و إن كان قد مس العرب بسوء لم يكن يهدف إلى مهاجمتهم أو الحطّ من شأنهم و إظهارهم بمظهر مشين ، و إنما كان كل ما أراده هو لفت انتباه معاصريه من الشعراء إلى أن التمسك بالتقاليد الموروثة عن العرب أيّام جاهليتهم و كذا بداوتهم في عصر تزاوجت فيه التقاليد و الثقافات و تطورت و استحدثت فيه الأذواق و المتع المادية و الفنية ، ما هو إلاّ سلوك مخالف و منافي لسنة التطور و مقتضيات الحياة الجديدة، التي تغزو مظاهرها المتجددة يوميا حياة العرب في عقر دارهم يقول في ذلك :

دع الأطلال تسفيها الجنوب **** و تبلي عهد جدّتها الخطوب.

و خل لراكب الوجناء أرضا **** تخبّ بها النجيبة و النجيب.

بلاد نبتها عشر و طلح **** وأكثر صيدها ضبع و ذيب .

و لا تأخذ عن الأعراب لهوا **** و لا عيشا فعيشهم جديب .

دع الألبان يشربها رجال **** رقيق العيش بينهم غريب.

إذا راب الحليب فبل عليه **** و لا تحرج فما في ذلك حوب.

فأطيب منه صافية ثمول **** يطوف بكأسها ساق أديب .

و يقول في موضع آخر مستهزئا بالعرب متهكما بهم:

عاج الشقي على رسم يسائله **** **و عجت أسأل عن خمارة البلد.**

و على الرغم من أن شعوبية أبي نواس كانت ثورة على مبادئهم و تقاليدهم في مجملها، **إلا أن** ذلك لا يعني أن شعوبيته لم تضم أيضا جانب تفضيله للفرس على العرب و افتخاره بنسبه على حسابهم، و إلا لما كان شعوبيا بمعنى الكلمة ،**وقد كان مما** قاله **في ذلك** :

تراث أبيساسان **كسرى و لم تكن** **** مواريث ما أبقت تميم و لا بكر .

و قوله أيضا :

تدار علينا الكأس في عسجدية **** حبتها بألوان التصاوير فارس.

قرارتها كسرى و في جنابتها **** مها تدريها بالقسي الفوارس .

كانت هذه لمحة موجزة عن شعوبية كل من بشار بن برد و أبو نواس باعتبارهما احتلا

الصدارة كروّاد لهذه الظاهرة، و إن كان الاختلاف الكامن بينهما هو أن شعوبية بشار كانت **عداءا خالصا للعرب** ، في حين كانت شعوبية أبي نواس ثورة على القصيدة العربية القديمة في مجملها .

ورغم هذا الاختلاف إلا أنه لا يكاد يذكر **بشار بن برد إلا** و يذكر إلى جانبه أبو نواس، و هو أمر إن دل على شيء فإنما يدل على اتفاقهما **تحت** لواء الشعوبية رغم ما يظهر للعامة من اختلاف.

الفصل الثالث :

"موازنة فنية بين الشاعرين ":

أ- مزايا شعر بشار بن برد

ب- مزايا شعر أبي نواس

أ- مزايا شعر بشار بن برد :

1/ الصياغة:

إن التجديد في الصياغة عند بشار لم يكن من اختياره إنما كان وليد تلك العاهة التي فرضها عليه القدر، فلم يكن يستطيع تجنبها ولا الهروب منها، ولعل أهم عناصر الصياغة عنده على الإطلاق التشبيه الإيهامي .

فما هو التشبيه الإيهامي؟ وكيف كان من أهم عناصر الصياغة عند بشار؟.

التشبيه الإيهامي :

ذهب بشار في التشبيه [1] مذهب غيره من شعراء عصره يطلبه مطلبهم، ويلح عليه إلحاحهم و يحاول أن يوجده قدر ما يستطيع، وقد نجح في ذلك وأخذ التشبيه في تشبيهاته مأخذه في عصره حيث استحسنه بنو عصره إلى الحد الذي بلغوه، لأنه كان بالنسبة إليهم هرب من القديم، وفرارا من نغمة طال عليهم ترديدها حتى ملوها .

وقد كان عماد التشبيه عند بشار البصر والرؤية، وذكاء الحس ودقة إدراك العلائق والفوارق بين الأمور. والعاملان الأخيران يصبحان ثانويين جدا بالقياس إلى الأولى تنعدم قيمتها في بعض الحالات انعداما تاما، وذلك حين يأتي الشاعر بالتشبيه معتمدا على ما حصله عن طريق السمع [2] من أركانه، وما رسخ في النفس من مفاهيم الأشياء قد تكون مخالفة لحقائقها مخالفة كبيرة .

---

[1]- نجيب محمد البهيمي : تاريخ الشعر العربي حتى آخر ق3هـ 46 مكتبة الخانجي –دار الفكر القاهرة–ص 355.

[2]- المرجع نفسه ص 357.

"فبشار ولد أعمى وما نظر إلى الدنيا قط "[1]. وهو بذلك مجرد من كل اثر وكل فكرة عن الأشياء من حيث الرؤية والشكل و اللون والجرم والتناسب ليس له من شيء قط حتى دلك القدر الراسب في النفس من الذكرى المبهمة للأشياء ،تلك الذكرى التي تعلق بالقلب أثار لماض مبصر قديم ،ولكن حتى هذا الماضي لم يكن له. وبذلك يمكننا القول أن اعتماد بشار على التشبيه كان فرضا محتوما عليه واتجاه إلى مركب النقص فيه .

وهو اعتماد لا يستند إلا على مفهوم موهوم وهو إلى حد ما نوع من ترجمة الأصداء المتعددة المنبعثة في النفس للأشياء عن سائر الحواس.

وهكذا اعتمد بشار على التشبيه بعد أن كانت غايته التوضيح، واعتمد به على الإيهام بعد أن كانت غايته الدلالة فهو يوضح محدودا بغير محدود.

يقول :

وكأن رجع حديثها **** قطع الرياضي كسين زهرا.

وكأن تحت لسانها **** هاروت ينفث فيها سحرا .

حوراء إن نظرت إلـ **** ك سقتك بالعينين خمرا.

وتخال ما جمعت علي **** ـه ثيابها ذهبا وعطرا .

وكأنها برد الشرا **** ب صفا ووافق منك فطرا .

[1]- أبي الفرج الأصفهاني – الأغاني – ص 22

فهذه الأبيات مثلا تروعك أول الأمر حتى إذا ما نظرت إلى ما تحتها لتستبين ما تحتوي من تشبيهات، لم تقع على مفهوم موهوم غامض يروعك أكثر وأكثر ويضطرب في نفسك اضطراب الخلية الحية التي تتشكل أشكالا مختلفة لا تستقر عند شكل منها ولا تقف عند حدود[1]فإذا نظرنا إلى البيت الأول:

وكأن رجع حديثها **** قطع الرياض كسين زهرا.

فإننا لا نستطيع أن نعرف ما هي العلاقة بين ترديدها الحديث وبين قطع الرياض التي كستها الزهور فنحن نستطيع أن ننتحل وجوها كثيرة ولكننا بالتأكيد لن نقتنع بالوقوف عند واحد منها و لن نقتنع سوى بالتزام واحد.

ذلك أن ركني التشبيه احدهما مسموع والأخر مرئي، والمقارنة بينهما عند من يسمع ومن يرى جميعا غير عند من يسمع ولا يرى.

و التشبيه عند بشار طريقة من طرق الدلالة بالقدر الذي تهيأ له إذ أن الصورة عنده موهومة والحديث عنده مسموع، فهو تشبيه محسوس بغير محسوس عنده، وهي عندنا تشبيه محسوس بمحسوس . لكنهما مختلفان في نوعهما بعيدان في وجه تقاربهما، ومن هنا كان علينا أن نتوهم لنفهم وقد يكون الموهوم الذي طال رسوخه في النفس وتقررت له بناء على طول هده التجربة صورة .

وقد يكون الموهوم صالحا لان يصبح ركنا من أركان التشبيه كما نجده في قوله:[1]

[1]- نجيب محمد البهيتي –تاريخ الشعر العربي حتى أخر القرن الثالث هجري – ص 358 .

حوراء إن نظرت اليــ ****ـك سقتك بالعينين خمرا

فهو هنا قياس اثر شيء منظور بأثر شيء مذوق، وذلك لا يقع إلا في الوهم ولا يفهم إلا تقريبيا و إذا نظرنا إلى دوافع قول هذا الشعر فإننا لا نجد فيه إلا نفاقا وزورا وادعاءا.

فالحور شدة سواد العين في شدة بياضها وهي أشياء لا بد أن يراها واصفها لم يرها بشار قط.

ونظرة صاحبه التي يقف أثرها في نفسه موقع الخمر من فمه كذلك لم يراها قط، حتى يشبهها بغيرها.و حتى لو قلنا أن بشار قد أخد هذه الصورة من غيره من المبصرين فترجم عنها فهو لا يكون بذلك مشبها ولا مقارنا، وإنما مجرد صائغ لفكرة مترجم عنها كما وقعت في تجربة غيره لا كما وقعت له.

وهو بذلك ليس إلا منافقا ومقلدا لا أكثر .وقد وقع مذهب بشار كثيرا في التشبيه الإيهامي على أن مذهبه هذا في التشبيه وما يتعلق به كان لونا جديدا على العصر فأولع به وتبعه فيه واعتبر به مبدعا وله مبتكرا و به صار أستاذ المحدثين.

وهكذا باتساع اثر بشار في الشعر العربي.[2] انتقل التشبيه إلى هذه الدلالة التقريبية وانحرف عن دلالته الحقيقية وتعدى تلك الحدود التي كان فيها من قبل حبيسا فأصبح المذوق أو المسموع أو المشموم أو المرئي أو الملموس أو المادة أو المعنى كلها أمور تتقارب و تتشابه، وتلتقي ولكنه لقاء أساسه الوهم والإيهام وغايته الشعرية إثارة معان

[1]- المرجع نفسه - ص 360 .
[2]- نجيب محمد البهيتي – المرجع السابق- ص361.

غامضة يسبح فيها الخاطر وتتبحبح في مسالكها الظنون.

وامتد هذا المذهب وكان من أثره الأغراب في التشبيه و الأبعاد في تصور الأشياء.

ب – مزايا شعر أبو نواس:

ليس كل شاعر ناقل مقلد بالذي يستطيع أن يسيغ ما ينقل إساغة أبي نواس له ،وليس تتاح لكل شاعر القدرة على ان يضع طابع شخصيته على شعره بتلك الدرجة التي أتيحت لأبي نواس، ولعل ابرز ما تميز به شعر أبي نواس ما يأتي:

1/قوة الطبع: وقد قلنا أن في أبي نواس قوة على الشعر وطبعا هيا لشعره سمات ومزايا نستطيع أن نتحدث عنها[1].

2/ شعبية الموضوع :

يعد أبو نواس من المدرسة الشعبية الخاصة، التي ترى ضرورة نزول الشعر إلى ميدان الحياة ليتناول وجوهها المختلفة والتعبير عنها، وهو في ذلك يختار أروج الموضوعات وأشيعها في عصره وأنفذها إلى قلوب بني عصره ولو تعلقت بشهواتهم[2] الوضيعة ، وما أميل الناس في كل عصر إلى هذا اللون، وما اشد ولعهم به وتهافتهم عليه، وبذلك فقد دخل أبو نواس بشعره في مخدع الفتاة والفتى، الخاصي والعامي، باعتبار الناس متساوون في حيوانيتهم ومن هنا كانت لموضوعات شعره مكان بارز جدا في شعر المدرسة الحديثة .

[1] - نجيب محمد البهيتي – تاريخ الشعر العربي حتى أخر القرن الثالث هجري–ص434.
[2] - المرجع نفسه – ص435.

3/ مكافئ من خاصية الشكل :

ولم يكتف أبو نواس بإذاعة شعره في بني عصره فكان يرى في مواضيعه نقصا لابد من تكملته من حيث الشكل، وإنما يكون ذلك بتوفير العنصر الجمالي الفني فراح يوفر لشعره البديع حتى قال عنه العتابي :

" والله انه لشاعر ولكنه تمادى في حب البديع حتى اغرق فيه ".

وهكذا راح ابونواس يوفر لشعره ما استطاع من الجمال الفني فكان الشكل سبيله في تكميل هذا النقص الذي كان يراه في شعره ،فكان مما اعتنى به في سبيل ذلك ما يلي :

أ- **اللفظ:**

لقد كان لأبي نواس قدرة على تناسق الألفاظ، كما كانت له القدرة على ترويض البديع للطبع وتذليله، حتى ليبدوا لنا وكأنه ليس له اثر من صنعة[1]ومن أمثال ذلك قوله:

ذكر الصبوح بسحره فارتاحا **** وأمله ديك الصباح صياحا

فهذه الحاءات تتقارب على قياس الراءات في نسق الراء في" ارتاحا" وقبلها في سحره، وكلا الفظين يتتاليان يتعاقدان في الخناصر ووسوسة السين بين صلصلة الصادات تتجاوب في جنبات البيت، يخفف من حدتها لين الحاءات وهذه كلها تتألف وتكون في مجموعها ما يشبه النغم العذب الهادئ، يطلع عليك مع الصباح ترافقه تلك الصورة الرائعة للديك وقد أوفى في ظلام السحر على شرف من جدار طربا يصيح مصفقا بجناحيه، فرحا غرد يستقبل الصباح وما أجمل تكريره هنا في قوله: "يصنف بالجناح جناحا "

[1] - نجيب محمد البهيتي – تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث هـ- ص435.

وانظر إلى الصورة الشفافة للشراب في كأسه كيف يصفها ويصورها:

أنفنى المصباح قلت له اتئد **** حسبي و حسبك ضوءها مصباحا .

فسكبت منها في الزجاجة شربة **** كانت له حتى الصباح صباحا.

ب/ الصورة:

اهتم أبو نواس بالصورة وركز فيها تركيزا مبالغا فيه فكان من بين صوره للخمر التي لا تكاد تنتهي قوله:

كأنها دمعت في عين غانية **** مرهاء رقرقها ذكر المصيبات .

تنزوا إذا مسها قرع المزاح كما **** تنزوا الجنادب أوقات الظهيرات.

وتكتسي لؤلؤات من تعطفها **** عند المزاج شبيهات بواوات [1] .

كما يقول في تصويره لوقع صوت تدفقها من إبريقها ووقع ذلك في نفوس الشرب :

كأن رقرقة الإبريق بينهم **** رجع المزامير أو ترجيح فأفاء. [2]

وقد ذهب أبو نواس في مذهب الصورة مذهبا يجعله يجعل من الخمر امرأة يخطبها ويحاورها وتحاوره فيقول :[3]

يا خاطب القهوة الصهباء يخطبها **** بالرطل يأخذ منها ملئه ذهبا.

قصدت بالراء فاحذر أن تسمعها **** فيحلف الكرم ألا يحمل العنبا.

إني بذلت لما بصرت بها **** صاعا من الدر و الياقوت ما ثقبا.

---

[1]– علي فاعور – ديوان أبي نواس – ط3– دار الكتب العلمية–بيروت/لبنان ص 250.

[2]- علي فاعور - ديوان أبي نواس – ص 246.

[3]- علي فاعور ديوان أبي نواس – ص 436.

فاستوحشت وبكت في الدن قائلة **** يا أم ويحك أخشى النار و اللهبا.

فقلت تحذريه عندنا أبدا **** قالت: لا الشمس قلت الحر قد ذهب.

وهو التعلق بالصورة لا يفلتها إذا سنحت مناسبتها ويلح عليها إلحاح الولوع ،ولو استحال بها الشعر إلى ما يشبه الدمية الجامدة و طبعه اسمح بالتشبيه وأجود إذا تعددت ألوان ما يريد تصويره ،فيقول في وصف صاحبته :

يا قمرا أبصرت في مأتم **** يندب شجوا بين أتراب.

يبكي فيذري الدر في نر **** جس ويلطم الورد بعناب. [1]

ج- الأضواء والظلال:

ويعد الولوع بالألوان والأضواء في شعر أبي نواس والتصرف فيها ركن هام من أركان تصويره، وخاصة في وصفه للخمر، وهي أضواء تلتقي وتفترق وتشق وترق وترف رفيف الزهر وتلطف لطف النور وقد تنعقد الألوان حتى تحمر درا وذهبا وبلورا مثلما هي في مقطعه هذا في حديثه عن الخمرة :

صفراء تحكي التبر في حافاتها **** عقد الحباب كلؤلؤ متبدد.

لما أخذنا بها صهباء صافية **** كأنها البدر وسط الكأس تتقد.

اخذت من كل شيء لونها **** فهي في ناجودها قوس قزح.[2]

وما طبخوها غير أن غلامهم **** مشى في نواحي كرمها بشهاب.[3]

[1] ـ علي فاعور المرجع نفسه ص246.

[2] – علي فاعور – ديوان ابي نواس – ص 259

[3] - علي فاعور – ديوان ابي نواس – ص276

الخمر تفاح جرى ذائبا **** كذلك التفاح خمر جمد.

فاشرب على جامد ذا ذوب ذا **** ولا تدع لذة اليوم غدا. [1]

فلما اجتلى الإبريق غنى كأنه **** مفرد شراب حكى لحن زامر.

فأفرغتها حمراء مثل سبيكة **** من التبر تشفى من زكام المناحر.

إذا درج الساقي لها في يمينه **** أرتك شعاعا أولا مثل آخر.

يسقيهم حمراء ياقوتة **** تسرج في الكأس وفي الكف.

صفراء كرخية إذا مزجت **** كأنها وجل يعلوه لونان .

د- تجريد المادة واستغلال الفلسفة:

كما تميز أبو نواس أيضا بتحويله للأشياء إلى أشياء أخرى واصفا تلك الأشياء بدقة متناهية مستغلا في ذلك كل ما انتهى إليه العلم والفلسفة في عصره، في إدراك تجرد المادة وانتهائها إلى ما يشبه العدم، وان كان لا يبلغ في كل شعره مبلغه هذا في تحويله للخمر إلى كائن من نور وشعاع قد تجرد من مادته يقول :

تخيرت والنجوم وقف **** لم يتمكن بها المدار .

فلم تزل تأكل الليالي **** جثمانها ما بها انتصار.

حتى إذا أمرها تلاشي **** وخلص السير والنجار.

آلت إلى جوهر لطيف **** عيان موجودة ضمار.

كأن في كأسها سراب **** تحله المهمة القفار.

[1]- علي فاعور – ديوان ابي نواس – ص284

لا ينزل الليل حيث حلت **** فدهر شرابها نهار.[1]

فأبو نواس في هذا المقطع استغل نظرية التحول إلى مدى كبير فقد حول لنا الخمر من مادة ذات جثمان إلى جوهر نوراني لطيف، وهو الروح والأصل وهو موجود كأنه غير موجود، وانظر إلى أي قدرة استطاع بها هذا الصانع أن يحول لنا الفلسفة والعلم إلى شعر أصيل خالص لا شوائب فيه ولا رداءة.

ولذلك كله قيل أن أبا نواس كان من أكثر الشعراء الذين جاؤوا بعد بشار طلبا للبديع حتى انه جنى على شعره[2]ما جنى بشار في المقارنات التصويرية يعتمد على الوهم والإيهام .

[4]- نجيب محمود البهيتي - تاريخ الشعر العربي حتى أخر ق 3ه ص 441

[2] - نجيب محمد البهيتي – تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن 3 ه ص 447.

خاتمة:

هكذا كانت الحركة الشعوبية في العصر العباسي، حركة شاملة دفعها العداء للعرب و الإسلام إلى بذل كل الجهود ،وسلك كل السبل الظاهر منها و المستور، إلى محاولة إرباك العقائد و تشويه المفاهيم الإسلامية، و زعزعة قاعدة المجتمع و أساسه تارة، و التنديد بالمثل الخلقية و القيم العربية، و محاولة طمس الذات العربية و قطع جذورها تاريخيا و ثقافيا و تفتيت الوحدة بدءا بمهاجمة الأنساب العربية القديمة، من خلال السخرية من العرب القدامى مثلما كان يفعل الشعراء الشعوبيون كأبي نواس و بشار بن برد، إلى مهاجمة الإسلام تارة أخرى.

مرة تحاول طبع الإدارة و الحياة العامة بطابع أعجمي لإحياء هذا التراث و تمجيده، و مرة تدعي أن الحضارة العربية ماهي إلا اقتباسات من الأعاجم، و أخرى تحاول زعزعة الثقة بالذات و صرف الانتباه إلى ما هو غير عربي من ثقافات أعجمية.

و رغم كل هذا فان الذات العربية ظلت راسخة شامخة حتى اجتازت المحنة و هي أقوى جذورا و أكثر غنا و انتصارا ،و إن كان هذا لا يعني زوال الشعوبية خاصة و أن موادها و مقوماتها لا تزال موجودة إلى الحين، و هي لا تنتظر سوى في الظروف المواتية لتواصل نشاطها .

قائمة المصادر و المراجع :

1- القرآن الكريم برواية ورش.

2- السنة النبوية الشريفة.

3- احمد الهاشمي – جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب – طبعة جديدة و منقحة – دار الجيل –.

4- ابن عبد ربه الأندلسي – العقد الفريد – طبعة 05 – طبعة لجنة التأليف و الترجمة – الجزء الثالث – القاهرة 1367 هـ.

5- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري- أساس البلاغة – راجعه و قدم له: الأستاذ إبراهيم قلاتي – دار الهدى – عين مليلة- الجزائر .

6- أبو عثمان عمر بن الجاحظ- البيان و التبيين – باعتناء عبد السلام هارون- الجزء الثالث – لجنة التأليف و الترجمة و النشر – القاهرة.

7- أبو إسحاق إبراهيم ابن الحصري القيرواني – زهر الآداب و ثمر الألباب – الطبعة الثالثة – دار إحياء الكتب العربية – القاهرة 1935م.

8- أبو فرج الأصفهاني – الأغاني –طبعة درا الكتب – الجزء الرابع- مطبعة التقدم- القاهرة.

9- إيمان البقاعي –المتقن في تاريخ الأدب العربي – مطبعة باسيل – دار الراتب الجامعية- بيروت /لبنان – 2006.

10- حنا الفاخوري – الجامع في تاريخ الأدب العربي – أدب قديم- طبعة 01- دار الجيل – بيروت/لبنان- 1914.

11- ياسين عطوان – الزندقة و الشعوبية في العصر العباسي الأول- دار الجيل – بيروت

12- الحافظ ابن أبي بكر احمد ابن علي الخطيب البغدادي- تاريخ بغداد – دار الكتاب العربي / بيروت

13- علي فاعور–ديوان أبي نواس – المنشورات محمد علي بيضون- طبعة ثالثة –دار الكتب العلمية- بيروت/لبنان

14- محمد الطاهر بن عاشور- ديوان بشار بن برد- الجزء الأول- صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية-2007.

15- سراج الدين محمد –موسوعة المبدعون –الهجاء في الشعر العربي- دار الراتب الجامعية- بيروت /لبنان

16- عبد العزيز الدوري –الجذور التاريخية للشعوبية –الطبعة 01- دار الطليعة – بيروت/لبنان

17- العربي حسن درويش – الشعراء المحدثون في العصر العباسي- كلية التربية/جامعة عين شمس –الهيئة المصرية العامة للكتاب/1989

18- احمد عبد الستار الجواري-الشعر في بغداد حتى نهاية القرن 3 هـ -الطبعة 01- المؤسسة القلمية للدراسات و النشر-بيروت-2006.

19- عزا لدين إسماعيل- الأدب العباسي- الرؤية و الفن- دار النهضة العربية- بيروت -1975.

20- عبد الفتاح نافع- الشعر العباسي- قضايا و ظواهر- الطبعة 01- كلية الآداب -قسم اللغة العربية-جامعة اليرموك-دار جرير للنشر و التوزيع

21- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي-قاموس المحيط-إشراف محمد نعيم العرقسوسي- الطبعة الثامنة- مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر

22- مصطفى الشكعة-رحلة الشعر-الطبعة 01- الدار المصرية اللبنانية-أوت 1997.

23- محمد الغزالي- الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر-دار الريحانة - الجزائر-1988.

24- نجيب محمد البهيتي-تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري- الطبعة04-مكتبة الخانجي-دار الفكر -القاهرة .

مصطفى بيطام-مخطوط مقدم لنيل شهادة الماجستير -تحت عنوان -مظاهر المجتمع و مظاهر التجديد من خلال الشعر في العصر العباسي الأول (132-232